



العُصْرُ

العدد ٥ مجلد ١ سِباع الحكمة يجذبنا إليك يناير ١٩٢٨

عصر الاستكشاف البحري

وتأثيره في تطور الافكار الانسانية



ليس في مستطاعتنا ان نلم بتاريخ ذلك العصر الذي نشط فيه الرواد الى استكشاف الكرة الارضية وبقاعها المجهولة الماما تاما في عجلة قصيرة نريد بها أن نظهر تأثير الاستكشاف في تطور الافكار الانسانية. فان تاريخ ذلك العصر مملوء بكثير من الصور التي ان اردنا ان نتكلم فيها باطناب اضطررنا الى ان نكتب أكثر من فصل . لهذا نمضي في البحث غير عامدين الى الشرح الوافي بل مجتزئ بامثال نضربها في قالب تاريخي فنقرب الفكرة من الازهار بقدر المستطاع

لقد كان للحروب الصليبية اثرها في ايقاظ النزعة الى اقتحام مخاطر البر والبحر . ولقد زاد الى أثرها وضاعف من خطرها ، تلك الروايات التي كان يرويها المحاربون والذين ذهبوا ليحجوا الى بيت المقدس عن غرائب الشرق وكنوزه الكثيرة ، وكان للحروب الصليبية نتائج تجارية عديدة الصور متنوعة الاشكال ، وكان لهذه النتائج آثار حولت غريزة المخاطرة واقتحام

الجوائل الى اغراض عملية صرفة ، وعلى الاخص في ايطاليا ، مهد حركة التجديد الاوروبى فى المصور الوسطى ، حيث ظهرت نتائج تلك الحملات الدينية فى ثوب مادى صرف ، در على ايطاليا الغنى والترف الكثير . فكان من الطبيعى أنه يبدأ عصر الاستكشاف البحرى فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، وكان لازم ان يكون الايطاليون أول رواده .

غير ان عصر الاستكشاف الحقيقى لم يبدأ الا فى أواخر القرن الخامس عشر . وكان السبب فى هذا ازدياد ضغط المسلمين على العالم المتمدين وامتلاكهم لمنافذ البحار . فان المسلمين لما استولوا على الدنيا سدوا منافذها على أهل أوروبا ومنعوا عليهم حرية المرور الى الشرق ، حتى ان النفوذ التركى فى شرق البحر الابيض المتوسط قد هدد مدن ايطاليا بالخراب العاجل ، وكانت تعتمد فى تجارتها ورقايتها على غلات الشرق وعلى ما ينتج من ثمرات . وهنا بدأ الناس يفكرون فى هل من الممكن ان يجدوا طرقاً أخرى الى الشرق لا يكون للمسلمين وللأتراك على الاخص اقل نفوذ فيها ؟ حتى لقد بدأت فئة من الرجال العاملين يفكرون فى امكن الوصول الى الهند اذا ضربوا نحو الغرب من طريق جبل طارق فى خط مستقيم

وكان أول المعتقدين بصحة هذه النظرية بحاراً من جنوا يدعى خريستوف كولمبوس استعان بتعريض ملك اسبانيا وملككتها ، وأبحر فى سنة ١٤٩٤ مستقلاً متن المحيط الاطلانطى ، فاستكشف امريكا ، وكان يظن أنه بلغ الى الهند اقتناعاً بنظريته الأولى

ولقد احدث استكشاف كولمبوس اشكالا سياسيا كبيرا ، اذ بدأ النزاع بين اسبانيا والبرتغال لهما حق الملكية فيما يستكشف من بقاع الارض . غير أن البابا الاسكندر السادس فض الخلاف بخط وهمى ، سمي فيما بعد خط التحديد ، قطعه رأسيا فى وسط المحيط الاطلانطى ، وجعل كل ما يستكشف شرقى هذا الخط من نصيب البرتغال ، وكل ما يستكشف غربيه من نصيب اسبانيا ، لان البرتغال كانت فى ذلك الحين قد استكشفت كل شاطئ افريقية الواقع على المحيط الاطلانطى الى رأس الرجا الصالح ، فكان من صالح البرتغال ان تمنع فى استكشافاتها نحو الشرق . وكان هذا سببا فى رحلة فاسكودى غاما

الذى استطاع ان يدور حول رأس الراجا الصالح في ٢٠ نوفمبر سنة ١٤٩٧ وامعن في السير حتى . بلغ كاليكوت Calicut في مايو في سنة ١٤٩٨ ، وهى مدينة تقع على شاطئ بلاد الهند الغربى . فسكان البرتغال قد استفادت فائدة كبرى بذلك الخط الوهمى الذى رسمه البابا وصدر به منشوراً بابوياً مقدساً .

ولقد اتضح لاهل اسبانيا بأنه لازم عليهم اذا ارادوا أن يحتفظوا بتفوقهم الاستكشافى أن يمضوا في السير غرباً حتى يمكنهم أن يبلغوا شاطئ آسيا الشرقى من الطريق الذى سلكه كولمبوس . وهنا تحطمت تلك الاحلام التى شادها كولمبوس برحلاته الاولى ، اذ اتضح للناس أنه لم يبلغ الهند وإنما استكشف قارة كبرى هى أمريكا تقع بين أوروبا وآسيا . ولهذا شغلت العقول فكرة اخرى في امكان الوصول الى آسيا بالدور حول أمريكا كما يمكن الوصول الى الهند بالدور حول افريقية

كان بطل هذه الآونة فرديناند ماجلان . فقد اعتقد انه لا بد من أن يوجد في طرف أمريكا الجنوبي طريق يؤدي الى خليج « ملاقا » وكان ماجلان بورتغاليا مولداً ولكن ملكه أساء معاملته فخرج الى اسبانيا ولجأ الى الملك شارل الخامس الذى احسن وفادته ووضع تحت امرته عدداً من السفن بدأ بها رحلته من اشبيلية في اغسطس سنة ١٥١٩ ، واخذ سمته الى باتاغونيا ، وما زال يحارب الامواج والاهوال حتى اخترق ذلك المضيق الذى يحمل اسمه حتى الآن . ومالبت غير قليل حتى كانت سفنه تجرى من ذلك المحيط العظيم الذى سماه المحيط الهادى لما صادف فيه من طيب الهواء واعتدال المناخ . ووصل الى جزائر الفيليبين في ابريل سنة ١٥٢١ ، وهناك قتل . ولا يعلم احد أكان قتله من يد الهمج الذين صادفهم في هذه الجزر ، أم بيد اتباعه الذين تمردوا عليه في تلك البقاع النائية . غير أن احد ضباطه وكان يدعى « سباستيان دلكانو » قد اتم ما بدأ به ماجلان ، وعبر المحيط الهندى ودار حول رأس الرجا الصالح ووصل الى اسبانيا في سبتمبر سنة ١٥٢٢ ، فتم بذلك عملاً من اكبر الأعمال التى قام بها الانسان في التاريخ ، اذ ساح حول الارض لأول مرة في عمر الدنيا .

ولقد تبع هذه السياحات الثلاث سياحات اخرى اقل منها شأنًا ، وأن كان كل منها ذا أثر في استكشاف ركن من الارض ، وفي ازدياد معرفة

الانسان بدخائنها التي ظل على جهل بها حتى عهد قريب . وهنا نرجع الى غرضنا الاول متسائلين ! بآية وسيلة من الوسائل اثرت هذه الحملات الاستكشافية في لمعرفة الانسانية بما ظهر أثره في تحويل تيارات الفكر خلال التاريخ ، وبما كان سببا في هدم القواعد التي قامت عليها العلوم والمعارف في المصور الوسطى ؟

ظهرت أول الآثار التي أحدثها الاستكشاف الجغرافي في حو السياسة العالمية ، فان جغرافية الأرض الحديثة قد هدمت العلاقات السياسية الدولية وقضت على الروابط التجارية التي كانت معتبرة بين الدول كقواعد أولية . فحتى ذلك الوقت كان البحر الابيض المتوسط معتبرا مركز العالم المعمور . ولقد كانت مظاهر اغنى والجه والعظمة العالمية وقف على الامم التي عاشت حول شواطئه ، والامم التي كانت لها منافذ سهلة تؤدي اليه . غير أن الحالة قد تغيرت الى النقيض ، فبعد أن كانت ايطاليا مهبط الثروات الضخمة لانها اكثر الامم بروزا في مياه البحر الابيض المتوسط ، أصبحت الامم التي تستطيع أن تعبر المحيطات العظمى كاسبانيا وفرنسا وانجلترا ، اكثر الامم جنيا لغلات البلاد المستكشفة حديثا على شواطئ المحيطات العظمى التي مخربها السفن . ولا خفية في أن انجلترا لم تلق بنفسها بين احضان الحركة التجديدية في أوروبا الا من بعد أن استقوت على أهلها فكرة الاتجار على ظهر المحيطات العظمى ، فاحتكت باواسط أوروبا خاصة ، وغنها اخذت مبادئ التجديد الحديث .

وليس من شأننا هنا أن نمضي في ذكر الآثار التي خلفها الاستكشاف البحري في السياسة الدولية باطناب من القول ، وان كان من الواجب أن نلمح اليه بلمحة نكتفي منها بما ذكرنا .

أما اذا رجعنا الى تأثير الاستكشاف على صور الفكر وعلى المعرفة الانسانية فاننا نجد أن أول ما أثرت الحقائق التي وقع عليها المستكشفون ففي المعتقدات المذهبية الرسيطة التي عكفت عليها الكنائس في المصور الوسطى . فان الفكرة في شكل الأرض تغيرت تغيرا تاما . فقد ظن البعض أنها مسطوحة ، وزعم البعض الآخر أنها محدودة . غير أن فئة من أهل هذه المصور من اعلامها البرت الكبير Albertus Magnus والقديس ازيدور الاشبيلي وفنست بوفيه

الانسيكلوبيدي المعروف ودانتى الشاعر الخالد، قد قبلوا فكرة أنها كرة. غير أن هؤلاء بانفسهم قد رفضوا الاعتقاد بفكرة أن الارض مأهولة من جانبها الآخر، باعتبار أن هذه الفكرة مضادة لما جاءت به الكتب المقدسة. وعلى الرغم من أن هذه الفكرة قد بشر بها كتاب من أهل العصر الوثني أمثال بلينيوس وشيشرون وغيرهما، فإنهم أزاء هذه الفكرة قد رجعوا الى فكرة آباء الكنيسة، الذين اجمعوا ماعدا فئة قليلة منهم، على أن الاعتقاد بوجود الانتيبود Antipode ويقصد بهم الاناسى الذين يقطنون الجهة المقابلة من كرة الارض، هرطقة صريحة وكفر بل تمجديف، ومن بعد لعنها وحرمها البابا « زكريا » ولقد استند هؤلاء الى مقاطع في الكتب المقدسة منها « . بلى . الى كل الارض خرج صوتهم والى اقاصى المسكونة أقوالهم » (١) وهنا يقول القديس أوغسطين بأنه مادام المبشرون بالدين المسيحى على مقتضى هذه الآية لم يصلوا الى الناحية الاخرى من الارض ليسمعوا أهاها هذا الصوت الالهى، فلا يمكن أن يكون في تلك البقاع اناسى تأهل بهم. وكيف يمكن للقائنين في تلك البقاع أن يروا المسيح فى هبوطه الثانى، مادام المعتقد ينص على أن كل أهل الارض سوف يرونه هابطا عليهم؟

ولقد ظلت هذه المفكرات مؤثرة أثرها المحتوم حتى عصر كولمبوس. فان اللاهوتى الاسباني « توستاتوس » Tostatus قد نفى فكرة الانتيبود بقياس منطقي فقال « لقد أمر الحواريون أن يذهبوا الى كل أقطار المسكونة وان يبشروا بالانجيل لكل انسان. غير أنهم لم يذهبوا الى هؤلاء الذين نسميهم الانتيبود. لهذا لا يمكن أن يوجد شيء من هذا فوق كرة الارض »

ولقد كان لهذه المعتقدات آثارها المادية، فضلا عن آثارها النظرية فان « بطرس أبانو » قد اتهم بالهرطقة لانه اعتقد بما يضاد مذاهب اللاهوتيين ازاء هذا الامر وحوكم امام محكمة التفتيش فى سنة ١٣١٦. ولما أحرق « شيكوداسكولى » فى فلورنسا سنة ١٣٢٧ كان اعتقاده بوجود الانتيبود احدى التهم التى أدت الى محاكمته والحكم عليه بالاحراق حياً. لهذا نرى أن عظماء المستكشفين لم يفصلوا فى الخلاف الذى قام على شكل الارض فصلاً تاماً لا غير، بل برهنوا أيضاً على أن فى الجانب المقابل من كرة الأرض اناسى، أى فى تلك البقاع التى اعتقد اللاهوتيون أنها

غير مأهولة . بل وقعوا على امم غير تلك الامم التي اعتقد اللاهتيون انها تنسلت
عن ابناء آدم الثلاث ، حام وسام وياث . ولقد كان السهم الذي سدده المستكشفون
الى المعتقدات القديمة صائبا فوهي من قوتها وأوهن من قواعدها ، والتي في
روح الناس أن مبدأ العصمة الذي طالما تدرعت به الكنيسة في سبيل بسط
سلطانها على الممالك والامم فاسد من اساسه .

لقد كان الاثر الذي خلفه الاستكشاف الجغرافي في العقوك والافهام بالغا ،
حتى لقد نشط الناس من بعد ذلك العصر الى العمل المنتج الموجه بالفعل الى
سعادة الانسانية . ففي نهاية القرن العاشر الميلادي اعتقد الناس ، من طريق
الكنيسة واللاهوتيين ، أن العالم سينفنى في آخر دقيقة من آخر يوم من شهر
ديسمبر سنة ١٠٠٠ من الميلاد . غير أن الناس لما رأوا أن ذلك كان وهما ،
عهدوا الى الارض يستغلون خيراتها و الى البحار يستخرجون كنوزها ،
وانقلبت الفكرة في السعادة الانسانية . فبعد ان كانت محصورة في فكرة
الخلاص الاخرى من طريق الدين ، تركت حول الاعتقاد بان السعادة من
المستطاع أن تنال فوق الارض ، من غير احتياج الى انتظار البعث والقيامة .
وهكذا تكونت فكرة جديدة في التقدم الانساني اصبحت ذلك الرمز الذي
يسجد له الغرب كله

وهكذا اذا قلبت التاريخ الانساني تجد ان الانسان قد سعد في الارض
بمقدار ما بعد عن المعتقدات المذهبية في الدين وغير الدين . وعندى أن السعادة
يمكن أن تنال من طريق الاخلاق اكثر مما يمكن أن تنال من طريق العبادات
والمراسم ، أو من طريق ارهاق الذهن والاكباب على تلك الصور التصوفية التي
رمتنا بها اديان الوثنية وأنتحلتها الاديان العظمى التي نشأت في غربي آسيا .
وكذلك لا ينبغي لنا أن ننظر أن تقدم المعلوم والاستكشاف مهدم لمبادئ
الاديان مقوض لما تقوم عليه من الزرائع . كلا . بل انى اعتقد انها مهدمة
للصور المذهبية التي يخلقها الرجعيون حول الاديان و يحوطنونها بها ليتخذوها
سياجا يتقون به قوة الحق الثابت .

واذا اردت أن تعرف الفرق بين النزعتين فما عليك الا ان تنظر في حالتين
احدهما كونها العلم والاخرى كونها اللاهوت المذهبي . وما تجد لهذا

من مثل ابلغ مما يزودك به علم الفلك . فتحت ظلال المذهب الفلكي القديم نشأ
فلكي الامراء « الفونس القشطالي » و هنالك رأى ما في نظريه بطلميوس ،
التي كانت تتخذها الكنيسة صماداً لتفسير الكتب المقدسة ، من منافاة للهدى
والرشاد ، وكان على جهل بغيرها ، فرمى العالم الاوروبي بقذيفة من الكفر
والاحاد اذ قال بأنه لو كان حاضرا يوم خلق العالم لاقترح للكون نظاماً اقوم
من نظامه وأدنى الى الحكمة : و تحت ظلال المذهب الفلكي الحديث ، الذي
وضعه كوبرنيكوس وغاليليو ، قال كبلر مملوءاً ايماناً — « انى لا استطيع أن
ابلع بفكرى الى معرفة فكر الله » . فان الفرق بين الروح الدينية المنبعثة
من صدر هذين الرجلين ، هي لدى الواقع اكبر مقياس يقاس به مقدار ما أنتج
العلم اليقيني من فائدة للدين . ولقد قال أحد رجال الدين الذين شبوا تحت ظلال
المدارس الحديثة وتشبعوا بروح الحرية الفكرية ان أهل اللاهوت من رجال
العصور الوسطى لما أعيوا عن التفريق بين الفجر وبين الضوء المنبعث عن
حرقة امتد لهبها — قد انصرفوا وهم أعداء النور والضياء



كارثة لشبونه

مترجمة نثراً

هي قصيدة فولتير التي رثى بها ضحايا زلزال البرتغال الذي وقع سنة ١٧٥٥
معارضاً بها قصيدة « برونيج » المعروفة التي عنوانها « كل شيء حسن . »



انتم عظة ومثل لقوة العناصر ،	ايها الاحياء التعميسة ،
العمياء المقيدة لارادة الله ؟	ايها الارض المدهمة الحزينة ،
اتقولون وانتم وقوف ،	يا جموع البشر الفزعين الخائفين ،
على كتل اللحم المرتعشة ،	المعلقين بالأمل الذي لا ثمر له ،
لقد اقتص الله ،	تقدموا ايها القائلون
وليس جزاء الخطيئة الا الموت ؟	« كل شيء حسن » !
أى جرم أو أية خطيئة تلك ،	وتأملوا في الخراب

القلوب الدامية الجريحة ،	هذه هي البقايا والاشلاء ،
الملقاة على صدور امهاتها . ؟	وهذا هو رماد اخوانكم .
وهل اقترقت لشبونة لتعميسة	لقد اصبحت الام مع الطفل ،
المنكودة من الخطايا	كومة بين الانقاض .

اكثر مما اقترفت ،	وتحت اثقال الرخام تناثرت الاعضاء .
-------------------	------------------------------------

لندن او باريس أو مدريد ؟	اليكم مائة الف من الابرياء ،
--------------------------	------------------------------

ولكن	تبتلمهم الأرض ، ممزقين ،
------	--------------------------

هنا يرقص الرجال والنساء ،	دامية ابدانهم ، وقبل ان يقف نبضهم
---------------------------	-----------------------------------

وهنا لك يثنون ويتألمون .	سترحب بهم القيور ،
--------------------------	--------------------

***	بعد أن يتقلبوا في اشد المذاب
-----	------------------------------

ايها المتفرجون على مصائب	اسمعوا الانات الخافتة !
اخوانكم صبراً ،	المن اصبخوا هيكل داميا ،

ايها الجامدون ازاء رقص المحتضرين ،	ولهذا المنظر البشع تقولون ،
------------------------------------	-----------------------------

ايها المتسائلون عن سبب الاعاصير ،	
-----------------------------------	--

أتظنون أن العالم يكون أكثر شراً ،
 إذا لم تقع كارثة البرتغال ؟
 من ذا الذي أكد لكم ،
 أن المسبب الأبدى الأعظم ،
 العالم بكل شيء ، لأنه يريد ،
 لم يكن بمقدوره تركنا ،
 دون أن تنسفنا البراكين ؟
 أتحدون قوة العظيم الأبدى ؟
 أتمنعونها من أن ترفق بالخلائق ؟
 أليس للفنان الأعظم وسائل عديدة ،
 يصل بها إلى تنفيذ ما يرغب فيه ،
 السيد ! أنا لا أعترض عليه ولكني
 أود لو أن النار والكبريت ،
 كانا قد انتثرا في تجاهل الصحراء .

اني احترم الله وأحب العالم .
 ومحبتى الناس ولست كبريائي ،
 هي التي تدفعني إلى النواح ،
 لوقوع هذه الكارثة الكبرى ،

أعزون حزني الخرائب ،
 وقتلي الشاطئ المهجور ،
 بقولكم :
 « ألا ارقدوا بسلام »
 فقد ضحيت منازلكم للصالح العام
 وسيعيد بناءها قوم آخرون ،
 وسيثرى الشمال من خسارتكم المحزنة ؟
 مصابكم ليس الحلقة من حلقات ،

التي لو هبت عليكم وانتم في امان ،
 لامتزجت دموعكم بماء الفيضان .
 ولو فغرت الأرض فاهها العميق ،
 وفتحت فكيها المروعين ،
 لعلمتم بان حزني صادق وبكائي حق .
 ولو حو طكم الفناء الغشوم ،
 وحط عليكم بغضب الشرير ،
 وانشقكم انقاس الموت ،
 او لو واجهتم ملتهب المواد ،
 وحاصرتكم المصائب ،
 لنحتم معي ، وشاطرتموني الاحزان .

ولكنها الكبرياء !
 كبرياء القلب الثائر ،
 هي التي تخايل اليكم حتى تقولوا
 باننا احسن مما نحن .
 انصرفوا الى مهر تاجس وخبروه ،
 وابحثوا بين اطلال الهزة الدامية ،
 واسألوا المحتضرين بين الانقاض
 والخرائب ،

أهي الكبرياء التي دفعتمهم ،
 لطلب المعونة من السماء ،
 واستدراار الرحمة والعطف
 من الخالق على البائسين ؟

« كل شيء حسن »
 وكل شيء ضروري .

فلستم أمام الله غير ديدان جفيرة ،
مثل تلك الديدان التي تنظركم ،
لثنتهمكم في القبور ؟ ، ،
أى كلام هذا الذى تسمعون له للضحايا
الصامتين ؟ كفى فاشفقوا .

وخفضوا عليهم .

أواه .

ان قلبي لا يحتمل ،
ثقل القوانين الحديدية .
أليس بارادة الله كل شيء يتم ؟
الله ليس بحقودا ..
هو حر ، وهو عادل .

اذن فلماذا نتألم ونحن في حماه ؟
حل هذه العقدة الشديدة ،
من واجبات مفكريكم ،
فحاولوا حلها ، وليكن ،
لا تنكروها .

يرنجف الناس في قبضة القضاء ،
ومع هذا فهم يبحثون عن أصل الشر
وهم لا يشعرون بقسوة الضربات .
فالصخور تتساقط من قوة الرياح ،
وتحرق الصواعق شواهد السندياز ،
ولكنى . . . اعيش وقلبي يلتمس ،
العمون بمن برأه وكونه ا
يا أبناء القوة العظمى ،

ابتهلوا لمولى الجميع ! !

انما الوعاء لا يتكلم ، ولذا
لا يعترض احد ، اذ قيل بأنه
حقير وضعف .

واذا انكسرت الجرة في يد صانعها
فليس لها قلب يتفطر طالبا الرحمة .

ولكنهم يقولون ان في ذلك نفع
للجميع .

فمن جسدنا الفانى سيوجد يوما ،
الوف من الديدان ، عند ما يخيم
الموت علينا .

أهذه تعزية تخفف بها المصائب ؟

أيها المقامرون على شقاء الناس ،
إنكم تضاعفون ولا تقللون
الآلام ،

وفيكم أرى اثرأ من الكبرياء ،
مدفوناً تحت مظاهر الانسراح

اننى فرد من المجموع الاعظم ،
وكل موجود كتبت له الحياة ،
وكل الذى يحس يتألم ،
وأىضا يموت .

فالبازي ينقض على فريسته المستأمنة ،
ويغرس منسره في جسدها الضعيف
« وكل شيء حسن » فى الظاهر ،
ولكن ،

أهو تيفون (١) الذى قضى علينا
بالألم؟

أم هو اهريمان (٢)
الذى كتب علينا الشقاء؟
ولهذين المجرمين لا أعترف بالربوبية
ولكن لماذا يكيل إلهنا الخير المحض
البركات على بعض أبنائه،

ويعثر الشر على غيرهم من الناس؟
من ذا الذى يدعى معرفة ما يضره؟

لا يصدر الشر عن الخالق الكامل،
وهو أيضا لا يريد أحدا أن يفعله،
ومع هذا.. فالشر،
فى كل مكان موجود !
إيه أيتها الحقيقة المخيفة !
إيه أيتها المتناقضات العجيبة

هبط الآله الى الارض،
ليخلص نوعنا المنكوب،
ولكن شيئا لم يتغير !
من الناس من يقول
« لم يكن قادرا » !
وسواهم يقولون .. !
كان فى قدرته ولم يشأ !
وبيناهم جميعا فى أخذ ورد،
انفجرت الصواعق واندلعت النيران

الا رأيت النسر يمزق،
جسد البازى شرا تمزيق،
وفى قلب النسر تنفذ،
السهام المسددة من يد الانسان،
ويعوت الرجل فى حومة الوغى،
وتأكل الطير جسده المعفر؟

هذا هو العالم،
كل فرد يئن ويتألم .
ولقد ولدنا للعذاب،
والموت المحتوم،
ومع هذا نقول،
ان فى الألم خيرا كثيرا .

اية سعادة هذه؟
هل ما زلتم تصرون،
على ما يقال،
« كل شىء حسن ؟ »
ان الوجود يكذبكم،
وبكل ما فى الوجود من قسوة،
وكذلك القلوب البشرية،
فانها تكذب تخيلاتكم الفارغة .

حكم على الكائنات كلها بالتناحر،
فاعترفوا، اعترفوا فالشر مستأصل
وأما السبب . فماذا أقول فيه ؟

انه مجهول ! ! !

وهل يمكن أن يسببه موجد الخير؟

١ اله الشر عند قدماء المصريين

٢ اله الشر عند قدماء الفرس

بالسنتها ، ومات الناس في
البورتغال !!

وعلى هذه الصورة المخيفة ،
يكون نصف الخطيئات المستأصلة ؟

البارىء اما مجرد عن الشفقة ،
ينفذ ما يرتئيه برباطة جأش ،
واما أن تكون هنالك خطايا حقيقية
عقولنا قاصرة عن ادراكها .
اذن فلتكن لنا عبرة وعظة .
فالعالم ليس الا ممرآ ،
وليس عاقبة الألم ،
بشيء غير الهلاك ،
لدواتنا . ومن بعد ذلك ،
نجد الخلاص ، وكذلك نجد ،
الراحة الأبدية .

واما اذا قطعنا الممر ،
فمن ذا الذي يضمن ،
حسن الجزاء ؟
ومهما اعقب النهاية من الم ،
فكل امرئ يخشى ، وكل امرئ
يخاف .

وليس لنا من أمل ،
فالطبيعة صماء ،

وليس هنالك من فرج ا
الا ذكر الآله ،

الفيلسوف غر فولتير واشتهر بالرياضات وله آراء
طريفة في الفلسفة

فواسوا به الضعفاء ،
واقنعوا به العقلاء ،
ففي غيره لا نجد ،
موثلاً للاعتماد .

لم يعلمنا لينتز ، (١)
ما هو غير محسوس ،
من هذا العالم ، الذي ،
هو أحسن من غيره ، والذي
هو مملوء بالارتباك والكثيره ،
القائض بالتموضي والمصائب ، والذي
فيه مسراتنا ممزوجة بالألم ، والا
فلماذا يتحمل البريء الشقاء ، جملة
مع الذين يرتكبون المعاصي ، كبقية
العلماء . ! ! ! !
ابى أجهل السبب .

قديمًا زعم أفلاطون ، أنه
« كان للناس أجنحة ، وجسوم
تمانع الامراض المفنية ، وكان
الألم والفناء عنا بميدبن » .
فكيف سقطنا من ذاك العالم ؟
الشخص يولد ثم ينمو ويفنى ،
فكلنا نولد ليدركنا الفناء ، وعالمنا
هذا لم يوجد للبقاء .

وهذا البناء الضعيف ، المكون من
لحم وعظم ودم ، يمجز عن تحمل
صدمات المواد الجامدة .

بالرغم من أننا ذرات مفكرة ،
نقيس النجوم بفكر سليم ،
فانا مجهل من نحن ١١١
وكذلك مجهل موجدنا ١١١

وجودنا جزء من اللانهاية ،
وأما ذواتنا فلسنا نراها .
دنيانا مكان الغرور والخطأ ،
مملوءة بالمصروعين الذين ،
يتكلمون كثيراً عن السعادة .
الناس يرغبون رغم هذه التعاسة ،
ميتة فظيعة ، تم قومة ثانية .
لان هنالك برهات من الحياة ،
المتألمة تمسح دموعنا باللذة الجامحة ،
ولكنها بعد ذلك تمر ،
تاركة لنا حسرة والمأ ،
كذلك نأسف لماض مخفوف ،
بشقاء عظيم وامل في الفرج .

ومادام الفكر سيصل الى القبر ، فهم
يقولون كذبا وزوراً «حسن» .
هذا مقال الكسول ، وأيضا
عقولنا نخدع وليست عليمه ،
فهل من نصدق غير الآله ؟

بزفرة خافتة مزجت بالالم ،
ارتل سراً بصوت ضعيف ،
مسيحاً المدة المستملحة .
ولكن مصائب الزمن علمتني ،

وهذا التركيب المكون من
الاخلاق ، والتراب ، لم يتكون لشيء ،
اللهم الا للقضاء .
وأعصابنا الحساسة ،
السريعة الانفعال ،

لوجدت للالم الموصل للموت ،
وهكذا الطبيعة تمس في أذني .

انى اكراه ابقراط ، وكذلك
افلاطون ،

والى «بايل» العظيم اشعر بميل ، لانه
مال الى الشك بدوره من قبلى .
ولانه عاقل ، ولانه عظيم ، يقول ،
ليس من الضروري وجود آله .
ولكنه ناقض نفسه بنفسه ،
فاصبح مثل الكفيف الذى ،
أهلك فلسطين ومات معها .
اذن فلنستمع للعقل الكبير ،
اذ يقول — «أن القدر مستغلق
علينا»

«وليس الإنسان بعارف حقيقة
نفسه»

«ولا من أين أتى ، ولا الى أين يصير» .

ايه ايتها الذرات المتألمة ،
المتقلبة على فراش من طين ،
المقضى عليها بالموت والقضاء ،
وبالاستهزاء والسخرية ١١١١

وجرب الشعور مع المستضعفين ،
وبين الظلام الكثيف أنقب ،
عن الشرح والجهل والضيق
عظمتك منزهة أيها الواحد القاهر ،
عن النور !!! ولكنني أخشى الملام . والخطيئة ،

وقيل وفاة أحد الخلفاء ،
رود بقلب كسير ،
وكان عليه أنه يضيف الى هذا
« كذلك أنت عن التامل منزه »
أديب

المذهب

ويكره مبغيا عليه وباغيا
فان كان ممن ملكوا أرسن الهوى
وكان له فيمن تولوه ذادة
وما هو بالمستوضح الحق ما ادعى
ولكن تحيران الانام مطوع (٢)
وذا الرأي مدفوع اليه يبارق
فوالله إن الناس في الارض سيروا
ففي كل عصر قادة وأئمة
وقوم على دين الأبوة نشئوا
فسبحان ذي السبحان لارب غيره
أخو الرأي ألا أن تسود مذاهبه
هوى الناس قادت ركب قوم نجائبه
تدافع عنه من عطا (١) وتحاربه
فما زال كون الحق تغطو غياهبه
يناديه ذكوان الحجا فيجاوبه
من الفكر لاحق تنور طالبه
بمجهلها في غيب ضل رايه
وطالب حق فارغات حقائبه
مناقبه مقبولة ومثالبه
أرى عالم الدنيا تضل ركائبه
عبد اللطيف ثابت

(١) عطا تناوله بلسانه وآساء

(٢) من فطوحت له نفسه قتل أخيه تابعته وطاوعته

وحدة الحالات النفسية

موضوع الذهن والانتخاب النفسى

« بحث علمي »

لكل حالة نفسية اهتمام بموضوع واحد بل واستغراقا فيه هو خارج عن ذاتيتها وجوهرها وبعبارة أوضح أن موضوع كل حالات الوعي خارج عنها فلا يكون موضوع الخطرة النفسية ذاتها ووجودها . فوظيفة الفكر اذن هي وظيفة عرفانية . وقد اختلفت آراء الفلاسفة منذ القديم في أمر هذا العرفان . فالعقليون يرو أن لمعرفة الشيء يجب أن يتحد الفكر بالموضوع . وهم يرون أن العالم والكون فكر للذات الالهية . والاشياء موجودة لاننا ندرك وجودها . قال شيء اذا موجود في ذهن الفكر . والكون موجود لان الفعل الازلى يفكر فيه . ومن الغريب أن يكون لمثل هذه الافكار الفلسفية الغريبة شبيه في الشرق . فالذين قرأوا كتب صدر الدين الشيرازى الفيلسوف الايرانى (١) يعرفون أنه كان يرى ذلك في نظريته المشهورة في كتاب الاسفار وأنه لا ادراك اى شيء ادراكا تاما يجب اتحاد المدرك مع المدرك أو العالم مع المعلوم .

أما السبب في أننا نرى نفس الشيء دون تغير ظاهرى في ماهيته فهو أولا اجماع الغير على تأييد ما نراه في ذلك الشيء وماهيته وكنهه، وثانيا يقيننا بان ما نعرفه عن الشيء الان هو عين ما عرفناه عنه في الماضي . ومن المسائل الاساسية في الفلسفة وعلم النفس ان ذاتية الشيء وعدم تغير ماهيته في عالم تكثر فيه الماهيات أصل للاعتقاد بوجود حقيقة خارجة عن الذهن . وقد ذهب الاستاذ هرزن الى أن شعور الطفل بوجود شيء مع عجزه عن معرفة ما اذا كان هذا الشيء في الخارج أو الداخل، وشعور الانسان في حالة الانغماء وقت تنعدم فيه الحالات النفسية،

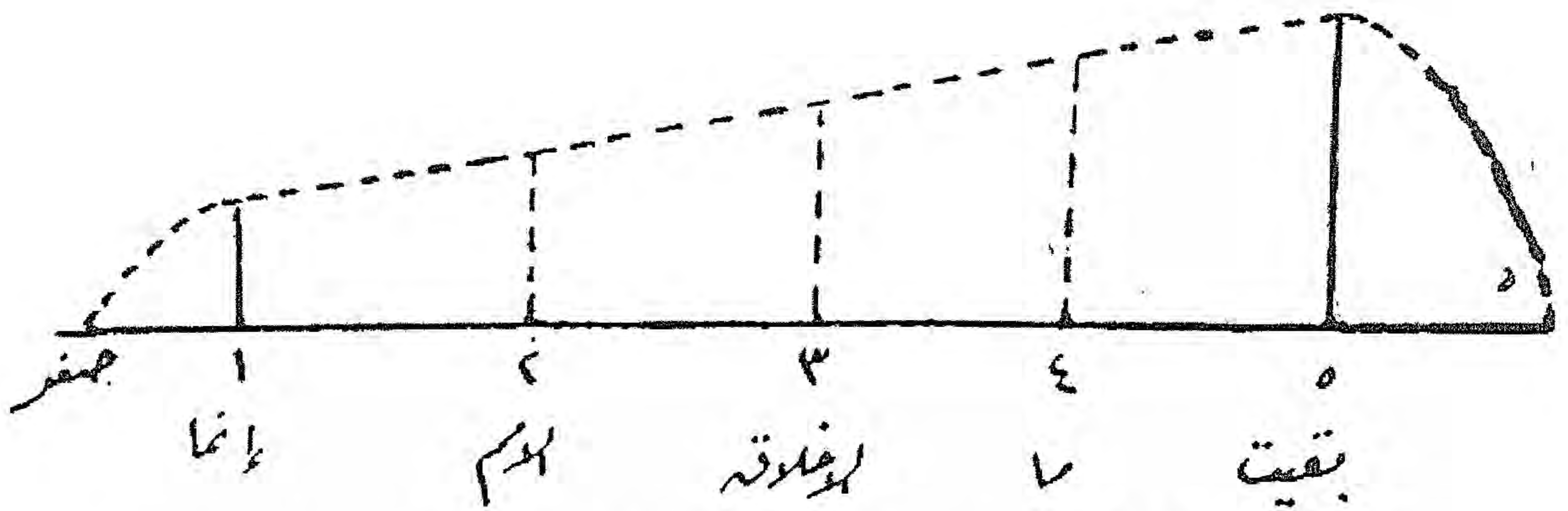
(١) فيلسوف ايرانى عاش في أواخر القرن السابع عشر الميلادي وعاصر دولة الصفويين في أوائل حكمهم في ايران

يدلنا على أن في نفس كل انسان حالة نفسية هي الشعور بالوجود المطلق . وان ذلك يدلنا على أن لدى انعدام تكرار الخبرة المطلقة في الحياة لا يوجد شيء يقال له حقيقة داخلية أو خارجية بالنسبة للذهن . وقد ذهب كثير من الفلاسفة منهم هارتون وملز (الاب والابن) وغيرهما إلى أن وظيفة الفكر العرفانية يلزمها عملية أخرى سابقة عليها وهي عملية التفكير أولا . فيقولون إنه لأجل أن يعلم الفكر بوجود شيء يجب عليه أن يميز أولا بين ذلك الشيء ونفسه . وقد خطأهم الأستاذ جيمس وقال ان القول بأنه حتى يعلم الفكر بشيء ما يجب أن يسبق عرفانه ذلك أنه يعلم ، كالقول تماما باننا لنحلم ونرى رؤى وأحلاما يجب ان نحلم أننا نحلم . ولأن نحلف ونقسم يجب أن نقسم أننا نقسم الخ . وبعبارة أخرى اذا كنا نضطر لتفكير أن تفكر أننا تفكر ، فذلك لا يتفق مع أصول علم النفس . وذلك أن في تلك الحالة يكون عندنا حالتان نفسيتان كل منهما تستلزم عملية نفسية مستقلة عن الأخرى . والحقيقة أن الفكر ربما يميز بين نفسه وبين موضوعه . ولكن لا يلزم ذلك حتما . .

أما كلمة «موضوع» التي أشرنا إليها فليس المقصود بها موضوع الكلام كما هو معروف في علوم النحو والاجروميات وقواعد اللغات . بل يقصد منه في علم النفس الاسم بجميع علاقاته ونسبه التي تكلمنا فيها . وفي هذا العلم أيضا أن كل جملة هي وحدة قائمة بنفسها تمثلها حالة ذهنية واحدة ، اذا قسمناها وفصلنا بين كل كلمة وكلمة يتبدد المعنى بل وينعدم . فاذا قلنا مثلا : « وانما الامم الأخلاق ما بقيت » لا نعني بذلك ان كل كلمة من هذه الكلمات موضوع مستقل في الذهن قائم بنفسه ، بل انا نعني أن كل الجملة موضوع لمكرر واحد ونظرة نفسية واحدة . فالجملة ذات المعنى المفيد اذا هي وحدة قائمة بنفسها ، يقابلها في الذهن وحدة وعي أخرى . على أننا نهمل ذلك في الكلام عادة وكان يجب للابانة وتمام الايضاح أن نكتب الجملة ونوصل الكلمات فيها بشرطات صغيرة علامة على أن كل لفظ فيها غير مستقل وحده عن بقية الالفاظ . فنكتبها مثلا هكذا : و — — — — — اما — — — — — الأمم — — — — — الأخلاق — — — — — ما — — — — — بقيت دفعا للبس . وما يزيد الابهام أيضا تأخير الالفاظ واظهار لفظ مخصوص من الجملة كان هو كل الموضوع وإهمال بقية الالفاظ أو اضافة لفظ آخر غير موجود في الجملة .

قلنا ان الحالات النفسية وحدات لا تتجزأ . فأسماء الجمع والالفاظ المؤلفة ليس لكل منهما أكثر من حالة نفسية واحدة بسيطة لا تتجزأ وفيها . وقد وهم بعض العلماء الذين يتمسكون بنظرية تداعي الافكار (١) أى أن الفكر يدغو الفكر في اعتبار أن كل اسم جمع مركب من عناصر بسيطة له في الذهن ما يقابله . بمعنى أن الحالة النفسية أيضا مؤلفة ، لا بسيطة ومركبة على غرار الاسم المركب . بيد أن أصحاب هذا الرأي يلزمهم أن يقولوا بوجود « نفس مجردة » و « أنا » ثابت لا يتغير يربط هذه العناصر النفسية ويؤلف منها ماهية نفسية واحدة . على أننا نعرف أننا تفكر عن الاشياء وفي الاشياء جملة واحدة . وأنه يستحيل علينا ادراك علاقاتها ونسبها مع غيرها من الاشياء اذا كنا تفكر فيها مفردة وواحدة واحدة . فالتداعيون والحسيون يرتكب كلاهما خطأ عظيما في القول بأن حالات النفس مؤلفة تنحل الى عناصر بسيطة مستقل كل منها عن الآخر ، وتؤلف كلها ما يسميه الفيلسوف « كانت » الالماني كثرة . وبينما يرى التداعيون أن تلك الكثرة تؤلف وحدة قائمة بذاتها من المعرفة ، فإن الحسيين « الانانيين » أى القائلين بوجود نفس ثابتة هي « الأنا » ينكرون وحدة تلك الحالة العرفانية ويقولون أن الأصل في المعرفة كثرة مشوشة غير مرتبة يأتي « الأنا » فينظمها ويجعلها صالحة للادراك والتفكير . أما الاستاذ جيمس وغيره فلا يرون هذا الرأي ويقولون . بعدم وجود تلك الكثرة أمام الفكر ، وأنها من الاوهام التي لم يقم عليها أى دليل . بل الواقع أن الاشياء تظهر أمام وعينا في نسبها وعلاقاتها الغير متناهية كل منها في حالة نفسية واحدة ، وفي وحدة عرفانية كاملة غير متكثرة ولا قابلة للتفكك والتحلل . فاذا قلنا مثلا الجملة السابقة : وانما الامم الاخلاق ما بقيت . ومثلناها برسم بياني كهذا مثلا :

(١) تابع المؤلفون في علم النفس هذا المرحوم حسن توفيق العدل في تعريفه لفظة Association في كتابه البيداجوجيا بلفظة . تسلسل الافكار ، والسوريون تابعوا كذلك المرحوم الدكتور دانيال بلس في كتابه الفلسفة العقلية في تعريفه نفس اللفظة بكلمة (اشتراك افكار) . واني أفضل تعريب الاتراك لهذا المعنى بتداعي الافكار لانه أدل على حقيقة اللفظ



وكانت كل كلمة تمثل ارتفاعا وقيمة مخصوصة في الرسم تبعاً لقربها من النتيجة فتكون كلمة « بقية » أهم ما في الجملة وأكثرها ارتفاعاً لأنها غاية الجملة ونتيجتها. على أنه بالرغم من ذلك لا يمكن أخذ لفظ بمفرده . لأن الفاظ الجملة متصل بعضها ببعض اتصالاً شديداً . والكل يؤلف وحدة عرفانية واحدة يقابلها في الذهن حالة وعي واحدة . وقد قال الأستاذ أجار « إننا نجعل قبل التكلم ما نريد أن نقوله على أننا ندهش وملتئى عجباً عندما ننتهي ونرى ما قلنا وأننا أحسن التفكير » على أن نفس المستر أجار هذا يخطئ في القول بأن كل لفظة تنوب عما قبلها وتخلقه في المعنى وتعي لما سبق . وكذلك يخطئ في أن الألفاظ والمعاني يشرفان على الفكر معاً . ولا عبرة بالدليل الذي يورده تأييداً لمذهبه بأننا كثيراً ما نسمع وننحن مشغولوا الفكر جملاً والفاظاً لانتلفت حقيقة معناها إلا فجأة بعد الانتهاء منها . أو أن الفكر يسبق الألفاظ حينما نتعمد التفكير في أمر من الأمور . فحينئذ يرى أن تلك حالات استثنائية . وإن الألفاظ مخرجة بالمعنى في الحالة الأولى ملقية عليها ظلاً يتوصل الفكر فيها أخيراً إلى التفريق بينها . فيفهم المعنى أولاً ثم يسمع الألفاظ وصددها فيعني معانيها بمجرد الانتهاء من تلفظها . وأما في الحالة الثانية فإن الفكر ما يزال يتكرر في النفس ويستمر فيها حتى يمد تطوع الألفاظ للتعبير عنه . وفي كلتا الحالتين يكون الفكر والألفاظ من الحالات الذهنية الثابتة Substantial التي يفكر فيها الذهن كل منها بدوره بحالة وعية مستقلة .

إن كل خطرة من خطرات النفس لا تهتم بموضوع كلي شامل ويستغرق فيه كل الاستغراق . بل إنها تقصر اهتمامها على جزء من موضوع ما . وبعبارة أخرى

أما تتخير دائما جزءا من موضوع دون اهتمام ببقية أجزائه في نفس الوقت والساعة . فهي في انتخاب وتخير مستمر تنتقل كالفراشة بصورة متقطعة متصلة معا من جزء الى جزء تقبل ما يتلاءم وميلها وتطرح ما يتنافر معها وحياتنا النفسية كلها عبارة عن سلسلة عمليات اختيار

نحن نعرف أن الوصول إلى ادراك العالم الخارجى لا يكون الا من طريق الحواس . ونعرف أيضا ان الحواس هي آلات دقيقة حساسة لا تعمل الا اذا كانت المحسوسات الخارجية لها سرعة موجبة خاصة . فلادراك المرئيات يجب أن تتراوح سرعة الموجات بين عدد من مخصوصين حتى يتيسر لعصب البصر أن يتحرك ويعمل ويدرك . وكذا الأمر في السمعيات والشم . وقس على ذلك في بقية الحواس . وبعبارة أخرى أن الذرات المؤلفة للأشياء في تذبذب مستمر ويصدر منها موجات مستمرة تتفاوت في السرعة . وأنا لاندرك منها الا سرعة مخصوصة . فإذا زادت موجات الأصوات أو قلت عن حد محدود فمن المستحيل على الأذن السماع . وإذا علت أو نقصت أمواج الضوء عن سرعته المعروفة في العلوم الطبيعية، فمن المستحيل على البصر رؤية الأشباح . فعلما إذا بالكون هو علم جزئى لا يكمل الا بالاستنتاج الفكرى والمنطقى . وهنا تظهر أهمية الابحاث الفلسفية . على أنه يشترط فيها أن تكون تكملية للعلم لا متقدمة عليه ، وإلا فلا يؤمن الخلط والعثار

فأعضاء الحس إذا هي أعضاء انتخاب وتخير وانتقاء واستصفاء . انتخاب امواج لها سعة خاصة وكثافة خاصة وسرعة خاصة من بين ملايين الامواج التى يفهم بها الكون . على أن التفاوت الذى نقول بوجوده بين الموجات الصوتية وموجات الحرارة وغيرها إن هو إلا بالنسبة اليها فقط . والا فان الموجات الأثيرية أو الكهربائية المؤلف منها الكون أو المادة ذات اطراد واتصال واستمرار لا يمكن بأية حال من الحالات أن يتصور فيه الأتصال والانقسام أو التقطع . فحواسنا تتخير وتنتقي لنا اذا من بين ذلك المحيط العالمى الهائل الذى يغمرنا بملايين الموجات الذرية كمقات جزءا بسيطا يناسب آلات ادراكنا الضعيفة . فالعالم الذى نتوهم أننا نعيش فيه اذا هو عالم مخصوص من المحتمل كثيرا جدا أنه لا يتفق وحقيقة الواقع في العالم الخارجى والوجود العينى .

فحواسنا تتخير أمواجاً خاصة تتناسب مع قواها وتتجاهل أو تهمل حقيقة بقية التموجات التي لا نستطيع ادراكها . فنحن لانعرف العالم إذا معرفة أكيدة مباشرة . وكل مانعرف منه إن هو إلا بعض جزئيات نستقوى بها على استخراج القوانين الجامعة والكميات المطلقة ، اقتصاداً في الفكر وراحة للذهن على أن نخير الأمواج والمحسوسات لا يتوقف فقط على أعضاء حواسنا التي كما قلنا أعضاء تخير وانتخاب . بل نحن نمجى أيضاً عملية فكرية هي الأخرى عملية انتخابية . فنحن نتخير من المحسوسات التي انتخبناها حواسنا جزءاً قليلاً نتخذه موضوعاً للتأمل والتفكير . ثم اننا لانزال آخذين في عملية الانتخاب هذه حتى ينتهي بنا الأمر إلى قصر تفكيرنا على موضوع واحد نهوب إليه كل ملكاتنا وقوانا من بين ملايين الموضوعات التي تفمرنا . فللادراك إذا صليتان الأولى عملية حسية محضة تقوم بها الحواس والأخرى تفسيرية يقوم بها الفكر .

أما مسألة التجرد والانتخاب هذه فهي الأساس لكل تفكير وفلسفة وعلم وثقافة وعمل وعمدين . وبالجمله هي الدعامة التي تقوم عليها الحياة . والناس والأمم يتفاوتون حسب مقدرتهم هذه على التخير والانتخاب . فمن الجماعات من ينتخب ما يضعفه ويشله ويقرضه ويميته ، كما كان يفعل آباؤنا من قبل . ومنها من يوجه كل قوى تخيره صوب ما يقوى الحياة ويمعقها كما فعل ويفعل الجماعات المتمدنة المثقفة دائماً

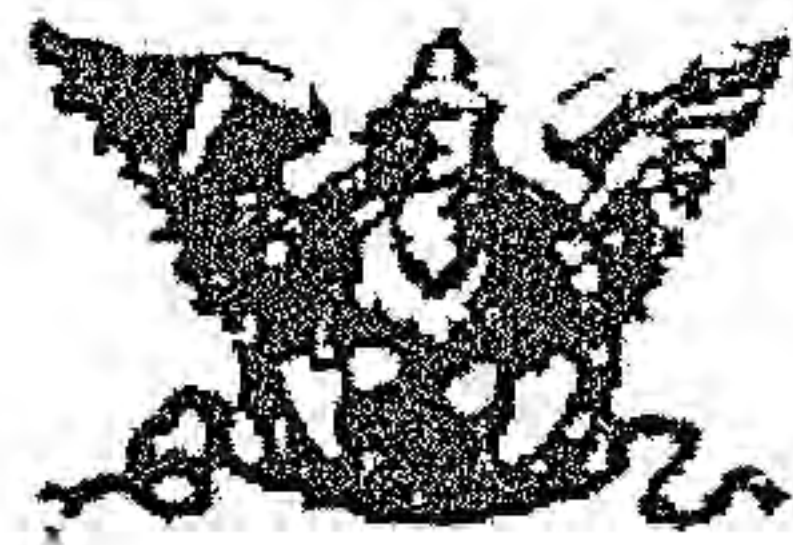
وما ينطبق على الجماعات ينطبق على أفراد الناس . فالمصور والموسيقى والكاتب والفيلسوف كل منهم يعيش في نفس العالم الذي يعيش فيه الآخر . ولكن الفرق بين مناحي تفكيرهم يرجع إلى قوة الانتخاب والتخير هذه . فالمصور لا يرى في الأشياء إلا النسب التي يدرك بها جمال الأشياء . ومعنى ذلك أنه ينتخب من مجموع المرئيات أمامه ما يناسب الصورة التي يريد نقشها فيطرح ما يتنافر مع الذوق وينتقى ما يؤلف وحدة الصورة ويعطيها الجمال المطلوب . وإنى اعتقد فوق ذلك أن مذهب المصورين الطبيعيين والذين يقصرون عمل المصور على نسخ الأشياء نسخاً وتقليدها تقليداً محكماً يخطئون كل الخطأ إذاً ذلك مستحيل فلسفياً ونفسياً .

وليس الامر قاصرا على المصور . فالموسيقار أيضا يعمل هذه العملية الانتخائية . فهو لا يتخير من العالم الذي يعيش فيه الا الأصوات ، ملاحظا النسب بين بعضها البعض متخيرا منها ما يؤلف نغمات خاصة تؤثر في النفس . على أن ما يهم الموسيقي والمصور قد لا يأبه له غيرها . فالسائح مثلا لا يعنى الا بالمعادات والمشارب . والفيلسوف يعيش في عالم خاص من الافكار قد يراه أكثر الناس غير متفق مع ما هو عليه العالم . والحق ان كل انسان يعيش في عالم قائم بنفسه مستقل عن العالم الواقعي ، بل وعن كل عوالم الآخرين

وقد ذهب الفيلسوف شوبنهاور الألماني في فلسفته عن مصير الانسان في العالم وانه مجبر لا اختيار له في شيء . مذهبا خطأ فقال إنه اذا لم يكن أمام الانسان الا طريق واحد لا غير فهو مجبر بالرغم منه ان يسلكه ويتبعه . وقد غفل عن أن الحياة كلها ليست طريقا واحدا يراه المرء لأول وهلة . بل الحقيقة أن ما يهم الانسان في جميع ادوار حياته هو الخلق أو العمل الوقتي الذي يجب أن ينتخبه ويتخيره من بين ملايين أنواع العمل الشتى التي تعرض له . وأما مصير الانسان جملة وماذا سيكون من أمره فلا يفكر فيه احد على الصورة التي يظنها فلاسفة القسر والجبر . لانها لا تتفق وحقيقة الواقع في الحياة ومألوفها والخلاصة أن لكل انسان ولكل حيوان عالم قائم بنفسه مستقل عن غيره كل الاستقلال . على أن سبب ما نراه من تماثل ما يراه بقية الناس هو ان كلامنا يتخير بالتقريب ما يتخير الآخرون . وقد قال الفيلسوف لوتز الألماني ان كلامنا يقسم العالم الذي يعيش فيه الى شطرين . أى العالم من جهة وهو من جهة أخرى . على أنه على الرغم من ذلك الاختيار والانتخاب والتقطع في العمل الفكرى لا يجب أن ننسى أن الفكر كالعالم فلسفيا . أى أنه متواصل مستمر . وعند الاستاذ مورجان انه يجب أن ننشد ذلك الاستمرار والاتصال في حالات الوعي في قاعدة الموجه النفسية التي تتحول بالحركة الفكرية الى رأس موجه اخرى تليها وهكذا على التوالي ، مما يؤلف عادة سلسلة موجات متصلة بعضها ببعض ، وعنده أنه يوجد عنصران في النفس يشيران الى استمرار ذلك المجرى العميق الموجود تحت الدرجات الوعائية والخواطر النفسية . وذلك أولا حالات تحت وعية

Subconscious ثابتة تتكرر في النفس نظراً لاطراد حالة الأُنسجة البدنية
المضوية وكونها على وتيرة واحدة وغير متغيرة ، مما نتج عن استمرار وتكرر
في نفس الحالات النفسية تكررًا نوعيًا . وثانياً وجود مجموعات حالات ذهنية
لا وعية ثابتة بالعادة مؤلفة من عناصر فكرية وثقافية وأدبية منتزعة من البيئة
والمحيط ، تتألف على أساسها أحلامنا وآمالنا في الحياة .

مما سبق يتبين أن دراسة النفس دراسة علمية يستلزم ملاحظة الحالات النفسية ،
وكل ما يمر في الخاطر ويسنح في الذهن ملاحظة دقيقة ، نتوصل بها الى معرفة
القوانين والاصول التي تعمل وفقاً لها . وقد وجدنا أن حالات الذهن أو الوعي
وحدات قائمة بذاتها لا يمكن تجزئتها الى ذرات وعناصر ، وأنها كلها متصلة
تسير في النفس كما يسير مجرى النهر المستمر المتواصل الجريان وأنها ليست في
حاجة الى جوهر موحد هو الأنا أو الروح مثلاً . واني أترك للقارىء أن يستنتج
بنفسه الفرق بين أبحاث القدماء والمحدثين . على أني اعدّه بمعاودة البحث إن
اقتضى الامر ؟
ع . حسين تقى أصفهاني



ماذا على الريحان

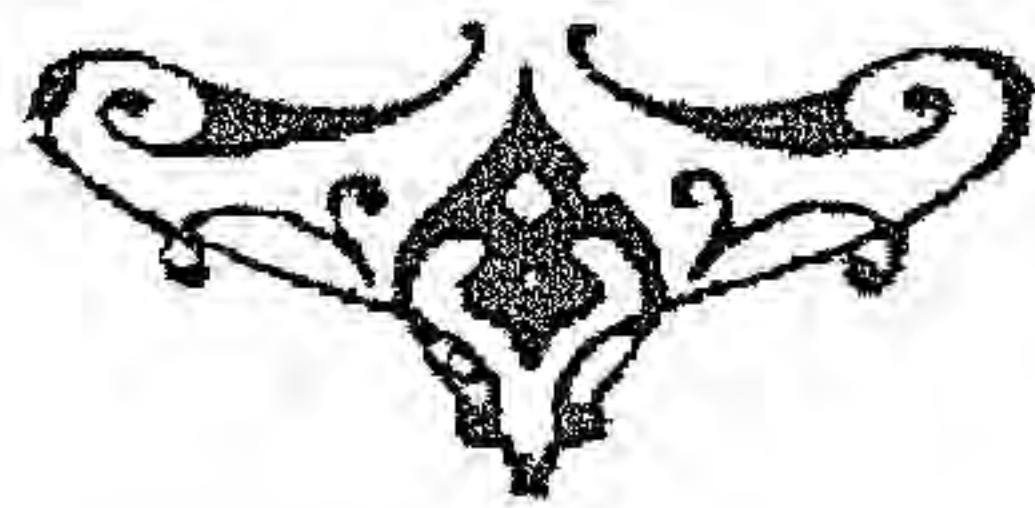
ننشر فيما يلي قصيدة تفيض عاطفة لسيدة من الفضليات اللاتي يصح للشرق أن يفخر بهن فإن « ماري عجمي » ليست في حاجة لأن تقدم لقراء (العصور) لأن لها في مجلتها (العروس) التي تصدرها في عاصمة الامويين جولات واسعة في الادب ، ما قصيدتها هذه الا عنوانا عليها .

أعد فخر الشوق قد ضوره	واطيب الانشاد ما أسكره
يا طائرا غنى على سرحة	هل من رسول ناقل أسطره
أعد من الالحان مالوففا	في جانب القبر ضحى عطره
أعد فمن قد ذاب منه الحشا	يقضى عليه الليل أن يسهره
أعد حديث الوجد حتى الضحى	فان في الالحان ما ذكره
ما الزهو والانشاد الهوى	قلب يود القلب أن يظهره
يحتاج فيه الشوق حتى ترى	أن ليس للمشتاق أن يستره

منازل الاطيار يا حبذا	مثنوى بتلك الجنة المسمره
يا حبذا الاحلام في ظلها	يضفى علينا وردها مظهره
تهوى عليه الورق ممتنة	لو تستطيع الورق أن تشكره
ما ان سقاء الطل حتى انثنى	عجبا فكاد العجب ان يهصره
في كل دوح ساجع هاتف	حي الهوى ، سبحان من صوره
في كل افق بارق ساطع	في كل عطف هزة منكزه
في كل جنب جانح خافق	في كل عين خمرة مسكره
يا فتنة الغابات في همسها	هل في الوري من كاشف مضمره
لقد وعيت السر في أضلعي	وهذا شدو لا اعى من صدره
يا من تبیت الدهر في حرقة	هلا اصمت الغاب مستمطره
ما الغاب الا معبد زاهر	زاه يرد الروح مستبشره

البدر في استهلاله ناظم
والفجر في أذيله نائر
يا حبذا الفريد من كامن
والزهر في أدلله خاطر
نجلي به أيقونة ، آياها
الماء يجري هامتها باسمها
حتى اذا ما الليل القى على
لاحت شمس الافق رجراجة
من رائع التشبيب ما صوره
ما شاءت الاسحار ان ينثره
يوحي الى الاكوان ما أضمره
نفوح فوح الند في المنجره
طيف دعاء القلب فاستحضره
والريح والريحانة المزهره
الارجاء ستر الهداة المخدرة
يا حسنها من ليلة مقمره

مساجد الارواح فيك الهدى
ما شئت من رقص ومن نعمة
ماذا على الريحان لو حركت
من ذا يلوم الطير في شدوها
لئن منعت الغصن من رقصه
أو ان منعت الموج في عبثه
وما الهدى الا المنى مسفره
انقي ميول الصب ما أظهره
ريح الصبا اعطافه مبكره
أو روضة ان لم تكن مقفره ؟
فقد منعت الروض ما نوره
فقد منعت العبر ما طهره
دمشق
مارى عجمي



فساد المجتمع الانساني

عن الأخطاط لنوردو والتطور الاجتماعي لتيلور

كلما اشتبكت انظمت الجمعية البشرية بعدت عن بساطة الفطرة . فاذا وجدت عقلية فطرية في وسط راق دون أن تتأثر بالتطورات المستجدة فلا بد لها من أن تتسبب في حدوث اضطرابات تظهر بمظهر المداوة للنظام السائد ويظل دأب الافراد المتأخرين متجها نحو الاجرام الى أن تتسع مداركهم ويستطيعوا استساغة الوسط ، أوحى ينشأ بعدهم جيل يتفهم ماهية المحيط اكثر منهم . وليس في الامكان صدهجمات هذه العقليات المتأخرة بحزم لان الوسائل التي تساعد على النجاح ليس في مقدور المدنية استعمالها . لان وسائل الردع الحديثة اوجدت لوسط راق حساس وأما تلك العقليات فلا تتأثر من زجر قوانين المهدبة لانها لا تفهم الا لغة قوانين الكنيسة في عهد نظام التفتيش أو ما هو اقل . كذلك لا يمكن لامة متمدينة أن تزج بين قوانينها الانسانية مواد من قوانين المتوحشين رغبة في تطبيقها على طبقة متأخرة لان المساواة والعدالة تنفيان الكيل للناس بكيلين . وكذلك تغشيان ان يتسلح البعض بهذه الاسلحة المنحطة للانتقام من خصوم لهم . ولهذا أصبحت مشكلة محاولة ايقاف اذى هذه الجماعة من المسائل العويصة التي تغضى عنها وتحميلها اتباعا للنظرية القائلة بتحمل ضرر البعض بدلا من الاضرار بالكثر . فالفوضوية مثلا ليست أكثر من لانظام يحوى مجهودات افراد غير مسئولين يعيشون بعقلية لا تختلف كثيرا من عقلية شراذم وحوش الانسانية الذين وجدوا في فجر التاريخ . فهي تجهل تماما معنى وفوائد نظام الجمعية البشرية الرقى الذي يحوى سيئاته القليلة — اذا قورنت بسيئات الماضي — جنبا الى جنب مع حسناته الكثيرة : فهم يضمون نصب اعينهم السيئات ويتغاضون عن الحسنات . ثم ينظرون الى النظام الحال بمنظار أقم فيندفعون الى الانتقام والتشفى رغبة في قلب ما هو موجود رأسا على عقب وجعله مطابقا لنظريات تملأ خيالها عقولهم

وبما ان عقليات الامم تتفاوت فلذلك نجد انه يوجد بين هذه الجماعة وبين الطبقات الهادئة طبقة وسطي هي طبقة العامة التي يستفزاها الكلام المبرقش فتثور ثائرتها مطالبة بحق حكم الدولة بحجة ان افرادها هم المكونون للاغلبية الساحقة فاذا ما تسلموا زمام الدولة خطوا من المستوى الاخلاقى ودرجة الثقافة الى ما تصل اليه عقولهم. ولذلك لا يلبثون حتى يسقط من يدهم ويتركون العنان لمن هم اقدر منهم، وهنا لا يكون للطبقة الوسطى وهي اكفأ الطبقات واكثرها تمسكا بالاخلاق واشدها ميلا للثقافة فرصة للقبض على ناصية الحال بل تتعداهم الى الطبقة العالية وانك لا تحتاج الى القاء اكثر من نظرة واحدة على نواب الامم كافة حتى يتضح لك انهم لا اكثر من قيم مالية يزداد نفوذها وينحط بنسبة ما لكل منهم من الثروة. فالمجالس النيابية والحالة هذه لا اكثر من « بورصات » للمالين يتآمرون فيها على الاستفادة ماديا من نفوذهم غير مباليين بالصالح العام، اللهم الا بقدر ما يعوذك عليهم بالرج. وهؤلاء يضيقون الخناق على الصالحين للعمل ويبذلون جهدا عظيما لابعادهم عن التأثير في مجريات الاحوال. ولذلك يملأونهم بأنفسهم المراكز العالية في الحكومة ويولون من يلوذ بهم وهم لا يختلفون عنهم كثيرا ان لم يكونوا اكثر منهم جسما في المراكز الاكثر أهمية فكيف ينتظر والحالة هذه من دولة وزراؤها ماليون او محركون في الدوائر المالية ان يبحثوا غير مفرضين فيما هو غير صالح للمخلوقات الوضيعة التي تتنازع على البقاء بين قاذورات المزابل التي نسميها خطأ منازل

وليس الانحطاط الاجتماعى نتيجة لوجود عقليات قديمة عاجزة عن تفهم الحالة الراهنة فقط، بل هو ناتج ايضا عن اهمال الرجال المسئولين شأن الطبقات الفقيرة السيئة الحال. وبذلك نجد التعاليم المتطرفة بينهم مباءة صالحة فيندفعون بين الضيق والجوع الى عمل ما يظنونه يضطر المترفهين الى النزول لمستواهم ومشاطرتهم المصائب التي تكل ظهورهم عن تحملها

ومع اننا مدينون للفلاح والصانع بكل شيء تقريبا فاننا لا نعيره اذى التفات جهلنا بانه ليس من صالحنا ارهاقه بالعمل ومنعه من حقه في نعيم الحياه والحقيقة اننا نرتكب بعض اخطاء دون ان نقصد ارتكابها ولكن نجب ان لا ننكر بان من الاخطاء ما نرتكب بقصد سيء. اضيف الى ما سبق

اننا لا نحاول البحث عما ارتكبه غفوا من الأخطاء لاجل تلافيه . فيجب على الامة الراغبة في التقدم ان تنتبه الى وجوب ازالة هذه الاخطاء قدر الامكان ومادام وجود امة حسنة الصحة يتوقف على وجود ام مألوفة لصحتها ، وجب علينا انشاء وسط صحي واقامة الام فيه . كذلك يجب صقل عقل الامة لينتجن لنا نسلا مصقول الذهن ولا يكلفنا التخفيف عن غلوائنا قليلا في بحس العامل نصيبه من الارباح التي نستأثر بها لا نفسنا دونه الاشياء جزئيا نمنع بالتنازل عنه تهديده ايانا بالثورة كل وقت وآن . فاذا ما تمكنا من جعله ينظر الى الحياة بمنظار غير اقم حبنا العيش له واصبح يرضى ببذل نفسه جزافا . وان من العبث ان نطلب من جائع ان يتمسك بقوانين الاخلاق وبالمبادئ الوطنية فيجب اذن قبل ان نحارب العقول المنحطة المندفعة للتخريب ان نسل يدها وذلك بمحاولة تنظيم الطبقات الدنيا تنظيما اجتماعيا راقيا بقدر الامكان وعندئذ فقط يقيس لنا حصر الخطر في منطقة صغيرة

ولكن انى للرجال المسيطرين تفهم هذه الحقائق ثم العمل على ازالة اسباب القلق الاجتماعى وهم يتوارثون الكراسى الحكومية كما يتوارثون نفوذ آبائهم وأقاربهم حتى أصبح بعضهم لا أكثر من رواسب منحطة تنقلب منذ نشأتها فى احضان الترف واللذة حيث خبت فيهم بقية من ذكاء هى من مميزات الجنس البشرى ! فهذه الجماعة قد انشأت من أنفسها وسطا سافلا ليس يختلف كثيرا عن احط دركات الطبقات الدنيا من جهة الاخلاق والذكاء واذا كان فى حيز الامكان ترقية الدرجات الدنيا ولو الى حد ما ، فليس فى الامكان التأثير على طبقة المخنثين التى استسلمت للانحلال النفسى وولوجى والاخلاقى وكذلك ليس هناك أمل فى ذريتها الضعيفة السافلة

فالانحطاط ليس خاصا بالطبقات الدنيا وحدها حيث تنشأ عقليات بدائية بل هو أيضا من خاصيات بعض الطبقات العالية التى أخذت فى الفساد وتحولت عن البشرية وانحط مستواها ، ويصح أن يقال أنها اشد خطرا على المجتمع من الجماعة الاولى ، فان لها من النفوذ والسطوة ما يهدد كيان المجتمع بين آن و آخر بالجرائم والوراثية هى كل شئ فى هذه الحالة لأن تأثير الوسط يكاد ينعدم اذ تحولت العقلية العامة فى طبقة مخصوصة الى اتجاه مخصوص عمر عنايت

راسبوتين

حاشاي ان اصنع قارىء بسرد أسطورة الاب جريمجورى وما فعله من الخوارق والمدهشات كما فعل الكتاب فى الجرائد والمجلات خصوصا طيلة مدة الحرب . أما الذى أريده فهو أن أساعدك على الوصول الى الحقيقة بتحليل أسطورة راسبوتين وارجاعها الى اصلها حتى يدرك مبلغ الاكاذيب وبالتحيلات التى تلصق بسير العظماء لان راهبنا هذا هو أحدهم سواء مقتنه أم احببته

انك ولا شك سمعت قصصاً عن قصور الملوك المبتدئين أمثال اويس وهنرى وعبد الحميد وما مائلهم ولا شك أيضا انك وقفت على أن تلك القصور لم تكن أكثر من نواد للخلاعة يستسلم فيها النبلاء والنبيلات لملاذم طيلة النهار وشطرا كبيرا من الليل

وما عليك الآن الا ان تفكر فى قصر القيصر الروسى لتقف على حالة البيئة التى نبتت فيها اسطورة القديس (أو الشيطان) راسبوتين

وما عليك لكى تفهم درجة الجهل وتحكم الخرافات فى سيدات القصر الا الرجوع الى درس تاريخ عصور اوروبا المظلمة وقت ان كانت الناس تحت رحمة رجال الدين حيث اندثرت معالم الاخلاق والآداب لدرجة أصبح التشدق بالفاظ واصطلاحات عليها مظهر دينى مقياس التقى والورع وانك لا تتمجب اذا سمعت بغيا تذكر الله بلسانها حامدة شاكرة أو مستجيبة خائفة بل تطالب لها من الله الهداية

هكذا كان الحال فى سراي قيصر الروس قبيل نشوب الحرب المظلمى . استهتار اخلاقى لاحد له قابع بين حيطان السراي . ذلك فى نفس الوقت التى تتخذ كل نبيلة من النبيلات لنفسها فيه قسا معرفا يغفر لها ما ارتكبت من الخطايا لتشتد قواها وتستعد لاقتراف عدد جديد منها

كان جريمجورى فلاحا يسكن احدى قرى سبيريا ففضله الجوع بناه فلجأ

الى المسوح يتقى بحرمته نصب العمل ويعتمد عليه في مقاسمة البسطاء ماربحوم
بغرق جباههم . ترك جريحورى امرأته مع ابنتيه وابنه وراءه وصار يضرب في
عرض البلاد (درويشا) يتطفل على هذا مرة وعلى ذاك أخرى باسم الدين حتى
اذا ما أعياه التعب التجأ الى بيعة وما أكثرها في بلدان الكمالى — لياخذ
لنفسه قسطا من الراحة ثم يرجع الى ما كان عليه حتى وصل مدينة سانبطرسبرج
عاصمة روسيا وهناك توصل لىكون قسا ممرقا لاحدى سيدات الشرف من
النبيلات وهنا بزغ نجمه

وكان قوى الجسم وحشى الحيوية جبارا فهل يستبعد ان تريده المذنبه
البضة الناعمة الملمس لنفسها فى وقت كان فيه جل الشباب فى المقدمة يدافعون
جحافل الالمان للذود عن حياض وطنهم أوظاهرا بدفاعهم عنه وطلبا للالاقاب
والنياشين والرتب وهلا نجد المرأة فرقا بينا بين امثال هذا الانسان الوحش
وبين النبلاء المخنثين الذين باتوا صرعى للذة وعبيدا للترف بل ما الذى تنتظره من
ذلك الوحش ذى الرجلين الاتين وهو يرى أمامه ما لا عهد له برويته امرأة تسرد
عليه ما افترفته من اثم وما ارتكبته من جرائم وهو لم يختبر . الا زوجه الفلاحة
الساذجة الخشنة الملمس والاخلاق

ولم يكن هو الوحيد الذى طرأت عليه هذه الظروف بل كم تمرغ فى حماتها
أمثاله وأنه ليخطر ببالي أن النبيلات كن يتعمدن انتقاء معرفيهم من هذه
الطبقة ليتيسر لهن اشباع رغباتهن دون أن يتركن لعشاقهن واصفيائهن مجالا
لتكدير عيشهن

ولا يجب أن يستبعد أن عشيقته المتدينة كانت جاسوسة للالمان مدة الحرب
لأن الحرب الروسية — اليابانية ربحتها أبناء الشمس المشرقة بالمال الذى دفعوه
للخونة من رجال ونساء الروس حتى أقدم بعضهم على استبدال الاسلحة والمهمات
الجيدة . بغيرها مما لا فائدة منه

ولم تكن القيصرة الا امرأة وام ترى بعينها فلذة كبدها وأملها عرضة
للامراض وترى ان راسبوتين يشفيه من مرضه بدعواته الحارة حتى اذا ما التفتت

القيصرة الى امر آخر صبت الجاسوسة الالمانية نقطة او نقطتين من دواء
لايشفى ولى العهد بعد تناولها الا ببصقة من فم الاب المقدس
واما القيصر فكان منهمكا فى الحرب يدافع عن عرشه وصولجانه وكان قلبه
يقطر دما على فلذة كبده ووارث ملكه فكيف يجرؤ على الشك فى القديس
الذى ارسلته السماء — هذا اذا كان لديه وقت طويل للتفكير — بل كيف
يمكنه ان يقف فى سبيل ارادة القيصرة وهي امرأته همها العمل لتنفيذ
ما تراه باية واسطة

فاذن جعل الالمان هذا القس نقطة ارتكاز يصوبون منها جاسوسيتهم
الجهنمية لهدم بناء الامبراطورية الشاهق ولو كان للحجر الذى تبني منه قاعدة
المدفع فضل فى ربح المعارك يكون لراسبوتين شىء من الدهاء مسكين هذا
الرجل فقد كان ممثلا سليم النية يفعل ما يراه منه فعلة تسديدا لما كان يلتذ به
من الخمر وما كان يحصل عليه من الطعام ومن النساء

وكان لابد للجواسيس من مكان فيه يجتمعون دون أن تدركهم اعين
الناس وانى لهم ذلك الا حول ذلك القديس الذى لا يجرؤ انسان على مسه
بسوء خوف غضب السماء على ولى العهد الامر الذى يتبعه غضب القيصرة فالقيصر
والحاشية المنزهة عن فعل ما هو غير دنس . وهل يخطر ببال مفكر ان شخصا
كجري مجورى هذا الذى كاد يكون عاميا يصبح فى امكانه الدعوة الى « وجوب اذلال
النفس بزناء الجسد اقرب الذنوب الى غفران الله » ؟ وهكذا انشئت حول
قداسة راسبوتين كنيسة يجتمع فيها الجواسيس وتحت جناحيها يأتمون ويقتربون
ما يشاؤون منتهزين الفرص لالتقاط الاسرار بواسطة رجال الدين أو بواسطة
الخمر والغرام

ولم تكن التعاليم التى يتبعها انصار هذه الكنيسة بالجديدة حتى يقال
ومن هو اذن الذى اخترع هذا النوع من الاعتقاد لان التاريخ القديم والتاريخ
الحديث مملوآن بقصص تشيب لها الولدان عن « نوادى عالم الظلام »
وانك لتجد فى المترائية بدورها وبين صفحات تاريخ الدولة الرومانية بل

وفي منعطفات لندن وباريس وبرلين وغيرها من المدن الحالية مؤسسات نائمة
على هذه الفكرة

وكانت الكنيسة تفرش بالطنافس الغالية وتمبق بارواح الزهور العطرية
وكان المتعبدون نساء ورجالا يقومون هناك بفرائضهم المقدسة تحت انوف
رجال الامن دون ان يجسر الاخرون على تحريك أى ساكن لانه سبق لهم
روية ما حدث لاحدهم على أثر مهاجمته للكنيسة المقدسة والقائه القبض على من
بها من الاررار وهم بغير ثياب بالمرّة ويقال ان أقارب القيصرو ومنهم بناته كن من
المتعبدات يتهم بعض الناس القيصرة او احدى بناتها بهشق الاب جر مجوار الخشن
ولو صح المثل القائل بان نصف الناس اعداء للذى يحكم اذا عدل لصح الاستنتاج
بانه وجد من لم يمل الى هذا النوع من العبادة او من ضاعت منه عشيقته في
ذلك الوسط أو من غضب عليه كهنة الدين الجديد او من حرق الكره قلبه او
من طمح الى الزعامة أو ربما أيضا قد كان يوجد بين طائفة النبلاء وطنيون ارادوا
ذبح اثور المعبود ليخلو لهم الفضاء اذ تنهدم بموته الكنيسة التي تقدرت بوجوده
وهكذا قتل راسبوتين غيلة في دعوة للحظ بعد ان هدمت جماعته ركنا
كبيراً من صرح الامبراطورية في حين كانت المانيا تريح المعارك بالمال وبالبنين
في جهات اخرى

حسين محمود



الاشباح الثلاثة

عن الجداول - لايليا أبو ماضي

رأدتني النوم وما برحا حتى طأطأت له راسي
اطبقت جفوني فانفتحا باب الرؤيا والوسواس

ابصرت كأنني في موضع ما فيه غير الأرواح
فوقفت بعيداً اتطلع فلمحت ثلاثة أشباح

ولد يتهادى في العشر وفتى في برد العشرينا
والثالث شيخ في طمر ذو جسم يحكي العرجونا

- ١ -

واذا الاول يترب منى كالطائر في الوثب
فشعرت كأنني أضطرب وكأن خطاه على قلبي

يا نفسي ما هذا الفرق ؟ لا ربح معه ولا نيل
ولماذا الخشية والقلق ؟ والخلق احبهم الطفل ؟

واذا بالطفل يخاطبني بكلام لا يتكلفه
ويمـازحني ويداعبني فكأنني شخص يعرفه

ما بالك منكشا كمداً قم تلعب في في الشجر
ونهز الاغصن والعمدا وتذود الطير عن الثمر

أو نصنع خيلاً من قصب أو طيارات من ورق
ومدى وسيوفاً من خشب ونجول ونركض في الطرق

أو نأتي بالفحم القائم ونصور فوق الأبواب
تئيناً في بحر عائم أو ليناً يخطر في غاب

أو كلباً يعدو أو حملاً يرعى أو نهراً أو هضبه
أو ديكاً ينقد أو رجلاً يمشى، أو مهراً، أو عربه

أو نجمل ماء وتراباً ونشيد بيوتاً وقباباً
أو نجمل منه أنصاباً أو نصنع حلوى وكباباً

مثلت الطفل ودنياه فاحبت نفسي دنياه
وودت لو أنى أياه بل خلت كأنى أياه

فضحكك ولج بي الضحك حتى استأقيت على ظهري
فاستيقظ في الولد الشك فتوقف يعجب من أمرى

ويقول أيا هذا قدكا فوحقك ذا الطيش الأكبر
ما تضحك منى بل منك أياك أنا لو تذكر

وتواري عني واحتجبا كالموجة في عرض النهر
فتضايق قلبي واضطربا وارتمجت روحى في صدرى

— ٢ —

واذ الشبح الثانى أقبل يترنح مثل المخمور
الليل على الدنيا مسدل وعاليه وشاح من نور

— ٣ م ع —

معصوب المقلة والدرب وعز وكثير الآفات
كسفين ليس لها رب تجري في بحر الظلمات

ماذا في الافق؟ فقد وقفا يتأمل فيه ويتسم
هل لاح له وجه عرفا أم هز جوارحه نغم؟

أم أبصر آلهة الحب تدعوه اليها ايماء
لأشياء في الافق الرحب وكأن هنالك أشياء

الطير يغنى للزهر ويظن الطير تساجله
والزهر يرحب بالفجر ويظن الزهر يغازله

ونظرت اليه في البر يتمنى لو خاض البحرا
ونظرت اليه في البحر يتمنى لو بلغ البرا

يتأفف من بطاء الدهر والدهر يسير به وثبا
وينام ليحلم بالفجر والفجر يضيء له الدربا

حوسائل عن كأس الحمر ويسائل عنها الناس
في الليل وفي وضوح الفجر والحرة فيه والكاس

فصبرت ولازمت الصمتا حتى داني الظل الظل
فاشرت اليه : من انتا ؟ فاجاب : انا ذاك الطفل

ومضي كالظل اذا انتقلا وانا أرجو لو لم يمض
فاعدت لنفسي ما ارتجلا فتمعجب بعضي من بعضي

— ٣ —

الشمس تزل عن الأفق كالروح المحتضر الساجي
غمرتها امواج الفسق فتواتر خلف الامواج

والغيم الأسود يحترق طبقاً في الجو على طبق
والليل يطول ويطرد والأرض كسار في نفق

واذا شيخ في صحراء كالزورق في عرض البحر
اعياه الصلح مع الماء وأضاع بدره الى البر

يمشي في الأرض على مهل وعلى حذر، لكن يمشي
كالشاة تساق الى القتل بمصا جبار ذي بطش

يا شيخ .. لماذا لا تقف دميت رجلاك من الركض
فاحاب بصوت يرتجف الأرض تسير على الأرض

يا شيخ .. رويداً فالبدري سيفيء الدرب فتستهدي
فاجاب : ويتلوه الفجر لكن سيفيء لمن بعدى

أيلد لفضن منكسر عرته الريح عن الورق
أن يبصر في ضوء القمر ما كان عليه من الطرق ؟

مالدة ميت في الرمس بالزهر الفواح العطر
نور لا يشرق في النفس كغناء في اذن الحجر

ما استخفت عني الافلاك والشهب، بل استخفي حبي
لم تملأ دربي الاشواك إن الاشواك لنى قلبي

يا شيخ . شجاني ما قلنا وزرعت بنفسى آلامك
من انت ؟ أجاب أنا أنتا انا ذاتك تمشى قدامك

— ٤ —

كم أبحث بين الأجرام عني وانقب في الأرض
احلامي تطمر احلامي بعضى مدفون فى بعضى

لم أبصر ذاتى بالامس فى لوح زجاج أو ماء
بل لاحت نفسى فى نفسى فهى المرئية والرائى

!! هى

هى روحى ، هى روحى إنها أقرب الأشياء من نفسى وقلبي
مثل زهر الحقل الأرض دنا وقريب هو منها أى قرب

وهى فى النفس جمال باعث نشوة الحب ، كهزات الطرب
أو كنوم قد سرى فى الجسد كده السير ، وأضناه التعب

وحياتى ، هى حبي نحوها يتمشى فى دمائى ذا حفيف
مثل نهر مغمم — فى جرية هادىء اللحن — بانفاس الحريف

إن إنشادى اذا كانت ممي كخبر الجدول الصافي النير
ان بيتا واحدا من نعمتى قد يساوى من قوافيه الكثير
القاهرة حسن كامل الصيرفي



علاقة الانسان بالكون (١)

عن الشاعر الآلهي رابندرانات طاغور

أُنيعت مدينة اليونان القديمة بين جدران المدن واسوارها المشيدة والحقيقة أن كل المدنيات الحديثة لها بداياتها في مهاد قوامه اللبنات المرصوة . ولا مريّة في أن هذه الجدران المشيدة تترك آثارها المحتومة العميقة في عقول الناس . فانها تلزمهم أن يضعوا نصب أعينهم تلك الحكمة السياسية المعروفة « فرق واحكم » وتطبعها في عقولهم وتضطرهم الى الاعتقاد بأن كل انتصاراتنا لن تنال الا باحكام تحصينها وفصل احداها عن الاخرى . فنفصل بذلك بين أمة وأخرى ، وبين صورة من المعرفة وصورة غيرها ، وبين الانسان والطبيعة . أنها تقوى فينا نزعة الشك في كل ما هو كائن خارج حدودها التي اقناها وشيدنا دعائمها ، وما من شيء يستطيع أن يقتحم لنفسه طريقا الى حيز اعتبارنا ، الا بعد موقعة كبرى وجهاد عظيم .

لما أن ظهر غزاة الآرين لأول مرة في الهند كانت تلك البلاد عبارة من رحاب متسعة مترامية الاطراف تكسوها غابات لم يلبث الغزاة ان انتفخوا بها وجنوا ثمراتها . فقد اتخذوا منها ملاجئ يتقون به حرارة الشمس القاتكة وهجمات الرياح الاستوائية القاتلة ، كما وجدوا فيها مرتعا خصيبا لماشيتهم ، ونارا يوقدونها للتوسل وتقديم التضحيات ، ومواد يبتنون بها القرى والاكواخ . ولقد سكنت كل قبيلة ، وعلى راس كل منها بطريقها Patriarch الأكبر في غاية من تلك الغابات ، حيث وجدت ما تحتاج اليه من هي طبيعي ، وغذاء وافر ، وماء دافق فالمدينة في الهند وليدة الغابات وبين جنباتها الرحبة اُنيعت وآتت أكلها . وفي صميم هذه البيئة وذاك الوسط تلونت بلون خاص ، وطبعت بطابع وحده .

(١) عمدنا في العصور الى تأخير فصول نقلها عن رجال العصر المشهورين أو عن القدماء غير ناظرين الى مبادئ اصحابها فنقلنا عن برتر ندرسل وعن قايل ادم وعن مكبريد ولا نزال نلخص فصولا اخرى عن شرتون هيل . وهذا فصل نقلناه عن الشاعر الفيلسوف طاغور وسنوال نقل فصول عنه في الاعداد الالية حبا في التنويع والفائدة .

ولقد حوطت تلك المدينة بحياة الطبيعة الرحبة وتغذت بلبانها واتشجت بردائها فكان لها بمختلف مظاهرها وتباين نواحيها ، اكبر علاقة ، وأمن آصرة .

قد يسبق الى حدس البعض أن حياة هذه صورتها وذلك طابعها ، قد تطفئ جذوة الذكاء الانساني ، وتهبط حرارة تلك المثيرات التي تفرع بالانسان الى التقدم والارتقاء بما تسبب من انحطاط في مستوى الوجود . غير أننا نجد في الهند القديمة أن الحالات التي سببتها حياة الغابات لم تستقو على عقل الانسان بما يضعف من زعاته ، ولم تذهب بشيء في مستغزات نشاطه ، بل كان كل أثرها محصوراً في أن تولى بتلك الاشياء الى وجهة خاصة . فالانسان كان حراً . لأن اتصاله باوجه النشوء والتطور التي كانت تحف به في الطبيعة قد حررت عقله من كل رغبة في أن يمد من سلطانه ، فيشيد الاسوار الشائخة حول ما يجمع من حطام . واذن لم يكن غرضه محصور في أن يملك ويجمع ، بل في أن يحقق وينظر ، وأن يوسع من مجال ادراكه ، وان ينشأ وينمو مع الاشياء المحيطة به ، لابل أن يشب مندجاً فيها .

لقد أدرك بان الحقيقة تتضمن كل شيء ، وأنه لا يوجد من شيء في الوجود هو مطلق الانفصال عن الكل ، وأن الطريق الوحيد الذي يقودنا الى حيث نجد الحقيقة هو أن ننفذ بوجودنا الى صميم كل الاشياء والموجودات بيد أن تحقيق تلك الالفة الكاملة الكائنة بين روح الانسان وروح الوجود ، كانت الغرض الاوحد الذي سمي اليه حكاؤنا الذين عاشوا بين الحراج والغابات في بلاد الهند القديمة خلال الازمان الاخيرة حطمت تلك الغابات و انقلبت حقولاً مزروعة ، ونبئت حف فيها المدن المشيدة و المواسم المنيمة . ولقد قامت عليها دولات قوية قادرة ، كان لها اتصال كبير بكثير من دولات الأرض العظمى . غير ان عين الهند حتى في تلك العصور التي خفقت على ربوعها فيها اعلام السعادة و رفعت في سماءها روح السلام ، كانت تنظر نظرة القداسة الى تلك المثل العليا التي رمت الى تحقيق الانسانية ، والى عظمة تلك الحياة الطبيعية التي متع بها سكان الاكواخ ، والتي استمدت خيرة آمالها من تلك الحكمة التي خبئت بين جدرانها .

والظاهر أن الغرب يفتخر بانه ماض في اخضاع الطبيعة ، كما لو كنا نعيش

في عالم معاد لطبيعتنا ، حيث نضطر الى أن نصارع في سبيل كل شيء نحتاج اليه لننزعه من نظام غريب عنا ، بعيد عن الخضوع لارادتنا. وما هذا الشعور الا نتاج لعادة العيش في المدن المسورة الحصينة ، وتدريب العقل عليها . لان الانسان في حياته المدنية إنما يوجه كل الضوء المنبعث عن بصيرته العاقلة الى العناية بحياته واعماله الخاصة ، وما من نتيجة لهذا سوى أن يخلق فاصلا صناعياً بين نفسه وبين الطبيعة التي يعيش في احضانها .

اما في الهند فإن وجهة النظر مختلفة عن ذلك تماماً . إنها إنما تجمع بين العالم والانسان وتتخذها حقيقة عظمى لا تنفصل اجزاؤها . توجه الهند كل جهودها الى معرفة تلك الألفة الكائنة بين الفرد والكون . أنها تشعر باننا لن نستطيع أن نتصل بوجه مامن اوجه الاتصال بما يحيط بنا من الاشياء ، اذا كانت تلك الاشياء غريبة عنا ، اجنبية عن طبيعتنا . اما شكوى الانسان من الطبيعة فتتجسر في أنه مازم بان يحصل على كل حاجياته بمجهوده الذاتي . نعم اغير أن جهوده تلك ليست عبثاً ولا هي ضائعة سدى . أنه يجنى كل يوم ثمراً ، وينال نجاحاً . وذلك يدل على أن هنالك قاعدة معقولة تصل بينه وبين الطبيعة ، لاننا لانستطيع أن نحصل على شيء ونجعله جزء من وجودنا ، ما لم يكن في ذلك شيء ، قدر من حقيقة الاتصال بذاتنا .

يمكننا أن ننظر في طريقا مامن جهتين مختلفتين . فقد تملثه لنا احدى النظرتين كأنه يقوم فاصلا بيننا وبين الشيء الذي تتجه اليه رغباتنا . وفي هذه الحال ننظر في كل خطوة نخطوها خلال سياحتنا على هذه الطريق كما ننظر الى شيء لم نلناه الا بعامل القوة والقبس انزعاجا من عقبات وحوائل تصدنا دونه . وقد تملثه لنا النظرة الاخرى كأنه السبيل الوحيدة التي تسلم بنا الى نهاية التي نرغب فيها ، وعلى ذلك تكون الطريق التي نسلكها جزء من الغرض الذي نسعى اليه . إنما يصبح الطريق الذي نسلكه في هذه الحالة بدء نجاحنا ، فاذا ضربنا فيه فاننا نجني كل شيء ، يمكن أن يؤدي اليه . اما وجهة النظر الاخيرة فهي بذاتها وجهة نظر الهند ازاء الطبيعة . فان اهل الهند إنما يؤمنون بهذه الحقيقة العظمى ، حقيقة أننا في اللفة تامة مع الطبيعة . وان الانسان إنما يستطيع ان يفكر لان بين افكاره وبين الاشياء التي يفكر فيها لغة واتساق . وأنه ان

قدر على أن يستخدم قوى الطبيعة في تنفيذ أغراضه ، فأما يرجع السبب في ذلك الى أن قوته في حالة ألفة وتطابق مع القوة العامة ، وأنه في درج أعماله كلها لن تصطدم أغراضه مع القصد والغاية المنبثان في تضاعيف الطبيعة .

أما الغربيون فيشعرون بأن الطبيعة هي عبارة عن الأشياء غير الحية و الحيوانات ، وأنه حيناً تبدأ الحياة الانسانية فهناك يقوم صدع متناه لا يسر غوره يفصل بين عالمين متناقضين . وعلى هذا يترتب أن كل شيء ينحط في درجات الوجود فهو في حيز الطبيعة الصامتة . وأن كل شيء مطبوع بطابع الكمال عقلياً وأدبياً ، فذلك في حيز الطبيعة الانسانية . وما مثلهم في هذا الا كمثل من يفصل بين السكم وبين الزهرة . ويجعلهما في حيزين متباعدين ، ناسباً وجود كل منهما الى مبدأ لا يتفق والمبدأ الذي أوجد الآخر . غير أن الحالة في الهند على نقيض ذلك . فأنهم هنالك لا يتدكأون في الاعتراف بصلته الرحم الواقعة بينهما والعلاقة التي تربطهما معا بالكل اللامتناهي

على أن الألفة الاساسية في الخلق لم تكن في نظر أهل الهند عبارة عن تأمل فلسفي لا غير . بل كان الغرض الذي رموا اليه في حياتهم هو تحقيق تلك الألفة شعوراً وعملاً . فبال تأمل والعبادة و تنظيم أعمال الحياة ، استطاعوا ان يغذوا ضمائرهم ووجدانهم على اسلوب جعلهم يشعرون بأن في كل شيء يحوطهم معنى روحانياً . فالأرض والماء والضوء والثمار والأزهار لم تصبح في نظرهم مجرد ظاهرات طبيعية ينتفع بها ثم تترك سدى . بل إن هذه الأشياء قد اعتبرت عندهم ضرورات لا بد منها للوصول الى اقصى قمة من المثل الاعلى في الكمال ، كضرورة كل نعمة من النعمات في التأليف بين القطع الموسيقية . لقد أدرك أهل الهند بما فيهم من قوة الحس الكامن بأن حقيقة هذا العالم ذات معنى حيويًا ندركه ، وأنه من الواجب أن نقف على دقائقها وأن نبدع صلة وجدانية بيننا وبينها ، لا من طريق الفرائب العاصية ولا من طريق الطمع في الانتفاع والكسب ، بل بتحقيق ذلك المعنى في جو تسود فيه روح العطف ، ممزوجة بشعور من الغبطة وحب السلام .

يعرف ذو العلم ، في ناحية في نواحي بحثه ، بأن العالم ليس مجرد تلك الأشياء التي تدركها الحواس . أنه يعرف بأن الماء والارض هما في الحقيقة نتاج تفاعل قوتان تظهر لحواسنا ماء وأرضاً . وكيف لا يكون علمنا بها جزئياً مع كل هذا ؟

في حين ان الرجل الذي ينظر بعين الروح لا بعين الحس، إنما يعلم أن الحقيقة الاخيرة في طبيعة الماء والارض، ترجع الى مقدار ما نستطيع أن ندرك من الارادة الباقية السرمدية التي تبرز اعمالها خلال المصوّر وتطاول الازمان، وتتشكل في صور من القوى المختلفة، نحقق نحن وجودها في تلك المظاهر. وليس في هذا شيء من العلم المجرد، بل هو ادراك الروح بالروح. على أن هذا الاسلوب لن يسلم بنا الى القوة، كما يسلم بنا العلم وطرق المعرفة. بل يسلم بنا الى الغبطة وانشراح الصدر، الذي هو نتيجة لتوحيد اشياء تربط بينها أواصر شتى. أما الرجل الذي لا يسلم به علمه باحوال الدنيا الى اعماق ابعد غوراً من تلك الاعماق التي يفضي اليها العلم، فانه لن يدرك طبيعته تلك الاشياء التي يستوعبها الرجل ذو البصيرة الروحانية من ظاهرات الطبيعة. فانه يعتقد ان الماء ليس وسيلة للنظافة لا غير، بل يشعر بانه يطهر قلبه ويصفيه من أدران الرذائل. وليست الارض عنده مجرد وطأة تحمل جسمه، بل هي وسيلة للسرور والانشراح. ذلك لانه يشعر بان علاقته بها ليست مجرد علاقة مادية. بل علاقة ذات معنى حيوى كائن. فاذا لم يحقق الانسان قرابته وأواصر علاقته بالطبيعة فانه يعيش في سجن تتكون جدران المسورة من اشياء أجنبية عن طبيعته. اما اذا مضى شاعراً بانه إنما يرى الروح السرمدية منبثة في تضاعيف كل الموجودات، فهناك يتحرر، لانه بذلك يكون قد كشف عن الحقيقة الكاملة لهذا العالم الذي يعيش في جنباة. هناك يجد الحقيقة، ويحقق الألف الكائنة بينه وبين الكل. على هذا نجد الحال في بلاد الهند. فان أهلها يعتقدون اعتقاداً تاماً في تلك العلاقة القريبة التي تصل بينهم وبين ما يحورطهم من اشياء جسمانيا وروحانيا، وتراهم يهلمون لشروق الشمس وتدفق المياه وثمار الارض، على اعتبار أنها اشياء تمثل الحقيقة الخالدة التي تضمهم وتلك الاشياء في بيئة واحدة. ولهذا نجد أن سفر « الجاياترى » Gayatri هو سفر التأمل اليومي، وهو مقطوعات شعرية تتضمن خلاصة كل ما في كتب الفيدا Vedas وهي إنما تتخذ وسيلة لتحقيق الوحدة الاساسية بين العالم وضمير الانسان. فانها تعلمنا كيف ندرك تلك الوحدة التي يربط « الروح الخالد » بين اجزائها. ذلك الروح الذي خلق الارض والسماء والنجوم، وهو فوق ذلك يزيد عقولنا اشعاعاً بما يبعث في الضمير والادراك من أضواء تترواح

بين الثبات والحركة ، ولكن في سلسلة غير مفصومة ، تبعاً لحركة العالم الخارجي .
وليس من الحقيقة في شيء أن أهل الهند قد حاولوا أن ينكروا الفروق
التقييمية الكائنة بين الأشياء . لأنهم يعلمون حق العلم ، أن هذا يجعل الحياة في
حيز المستحيلات . فإن الشعور بتفوق الإنسان وارتقائه في نظام الخلق ، أمر
لم يغب عن أذهانهم لحظة واحدة . ولكن كان لهم بجانب هذا فكرتهم الأصلية في
ذلك الشيء الذي ينحصر فيه تفوق الإنسان واستعلائه على الطبيعة ، وأن هذا
الشيء ليس في قوه الاستجماع والكسب ، بل في قوة الاندماج والوحدة .
لهذا نجد أن أهل الهند قد جعلوا قبلة حجهم إلى حيث يكون في الطبيعة أثر من آثار
الجمال والمظنة ، حتى بذلك يستطيعون أن ينزعوا العقل من دائرة الحاجات
الضيقة ، وأن يحققوا وجوده في اللانهاية . وكان هذا هو السبب الأوحد في
أن تقلع أمة برمتها كانت من قبل من أكلة اللحوم عن أن تنجر البهائم وتتخذها
طعاماً ، وتمكف على غرس بذور العطف العام والحب المتبادل . ولا مرية في
أن هذا العمل نسيج واحد في تاريخ النوع الانساني .

لقد علم رجال الهند أننا بإقامة الحواجز الطبيعية والعقلية ، إنما ننزع
انفسنا من حياة الطبيعة الفائض معينها ، واننا اذا أصبحنا الانسان مجرداً ، لا
الانسان مندمجاً في الكون ، فانما نخاق بذلك من حولنا جواً كثيفاً من المشكلات
الممضة ، واننا بذلك ننضب النبع الفياض الذي يزودنا بما نقدر به على حل تلك
المشكلات ، فنمضي من ثم في تجربة كل الاساليب الصناعية ، التي يؤتى كل
اسلوب منها ثمرة اليانعة من معضلات لا نعرف لها حلاً ، ولا نبلغ منها الى غاية .
فان الانسان عند ما يترك وكنه الفطري وسكنه الغريزي في جوف الطبيعة العامة
وعند ما يمشي على جبل الانسانية وحدها ، فان مثله في ذلك يكون كمثلي من
يريد أن يرقص متراوحاً بين أطباق الهواء ، أو من يهيب ، تحت قدميه هوة يقع فيها
فيجهد كل مجموعته العصبية وكل عضلاته في الاحتفاظ بتوازن جسمه لدى كل
خطوة يخطوها ، حتى اذا ما اخذ منه التعب واكده النصب ، أ برق ضد العناية
وأرعد ، ومضى وماؤه شعور مؤلم ممزوج بكبرياء كاذبة ، ظاناً بأنه سيء الحظ
مظلوماً وأن طبيعة الأشياء إنما تتجه في ناحية يشعر بأنها ضد غاياته ومقاصده
غير أن هذه حالة لا يمكن أن تدوم . فالانسان لا بد من أن يحقق يوماً
طبيعة وجوده كجزء من كل متلائم النواحي ، ويحدد مركزه في اللانهاية .

يجب أن يعرف أنه على الرغم من كده ونصبه ، فإنه لا يستطيع أن يجعل خلية حياته تفيض بالشهد ، لأن قوت حياته إنما يوجد خارج جدرانها المسورة . يجب عليه أن يدرك أنه إذا منع عليه الاحتكاك بالانهاية المحيية المطهرة فإنه عند ذلك يرجع منقضاً على نفسه يطلب منها الحياة والبرء من علله فتثور في قلبه ثورة الجنون ، فيمزق اجزاء نفسه أى ممزق ، ثم يأكلها جزء جزء ، فكأنما يهضم بذلك حقيقة وجوده . وهو إذ يفقد سنادة الكل اللامتناهي ، يصبح فقيراً معدماً صفر اليدين حتى في صفاته الانسانية ، صفات البساطة والسذاجة ، ويصبح قذر النفس ، تملو وجهه قطرة الخجل والانقباض . هناك ينضب معين ثروته الحيوية وتحيط به أسباب الخرق والاسراف والخجل ، وتحتكم فيه شهواته ولا تخضع لحاجات حياته ، ذاهبة الى اقصى حد من الافراط والفجور . وتصبح الشهوات غاية في ذاتها ، وتشعل في الحياة جذوة وتمدين اجزائها حريقاً مشتعلاً تنبعث مع سنته : نغماتها الشوهاء الموقعة على قيثارة نفسه المتلظية .

على هذا نجد اننا في قرارة أنفسنا انما نعمل دائماً على انتاج كل ما هو منزع مخيف ، لاعلى انتاج كل ما هو مفر جذاب . ففي الفن نعمل دائماً على ان نبكر ، ونغض الطرف من الحقيقة الخالدة التي هي على قدمها متجددة الشباب . وكذلك في الادب ، نغفل عن ان ننظر نظرة تامة في الانسان ، الذي هو بسيط ، بيد انه عظيم . فيظهر لنا الانسان كمسألة ببيكولوجيه ، أو كشهوة مجسمة في ذاتها ، عظيمة لأنها غير قياسية . ذلك لاننا ننظر فيه تحت اشعة مصطنعة شديدة التأثير . فان ادراك الانسان عند ما يصبح شديداً الارتباط بذلك الحيز الذي يجعله متين الآصرة بما يحوط نفسه الانسانية ، فان جذور طبيعته لا تجد من حولها تلك البيئة التي تساعد عناصرها على النماء ، وتظل روحه مشرفة على هاوية الاضمحلال والموت جوعاً ، ويتبدل قوة الصحة ، بحلقات من المنبهات الشديدة ، بعضها يحوى بعضاً . إذن فالانسان هو الذي يخطئ في معرفة ما ينطوى عليه وجوده من معاني الجمال ، فيقيس عظيمته بمقدار الكم لا بنسبة اتصاله الحيوى بالانهاية ، ويحكم على نشاط نفسه بما فيها من قدرة على الحركة ، لا بنسبة اطمئنانها الى بلوغ الكمال — ذلك الاطمئنان الهادئ الذي يبعثه في النفس منظر السماوات بنجومها المتألقة ، والبحار باصواتها المهتدة ، بل وكل ما يفيض به نواحي الوجود من توازن الخطو ، وتناسق الاجزاء .

ليس من شبيهه في التاريخ لغزو الهند الاول ، سوى غزو الاوربيين لامريكا
في المصور الحديثة. فانهم قوبلوا هنالك بغابات فديعة ، وحروب دموية مع السلالات
الاصلية التي كانت تسكن تلك البلاد . غير أن هذا الشجار الذي قام بين الانسان
والانسان وبين الانسان والطبيعة ، قد استمر حتى النهاية ، فلم يتفاهم الطرفان
مطلقا ، ولا التقيا في مواضع ساد فيه السلام . أما الهند فان الغابات التي ظلت
طوال الاعصر سكن المتوحشين والهمج ، قد أصبحت مباءة الفلاسفة ومأوى
الحكماء ، على الضد مما كان في امريكا . فان تلك الغابات ، كاندرا ثيات الطبيعة العظمي
وموضع عبادتها الاقدس لم تبعث في روع الانسان من معنى جديد ولم تزوده بشعور
من العظمة أو حب الاندماج في اللاهية . لقد اتحدت كمصدر للقوة والثروة ،
ولكنها قليلا ما بعثت فيه هنالك حسا من الجمال وشعورا بالخلود ، فكانت
على تدابر فترات الزمان توقظ في نفس شاعر ماروح الشاعرية . انها لم تحز في زمان من
الازمان الحديثة في امريكا قدرا من الارتباط بقلب الانسان . ولم تشهد شيئا
من طبيعة التفاهم الروحي ، يقوم بين روح البشر وروح الكون

واست أردد لحظة واحدة في ان أعلن بأن رغبتى لم تتجه الى القول بأن
طبيعة الحوادث كان من الواجب أن تسير في غير هذه الوجهة . فان التاريخ
يصبح في دوره عبارة عن مجموعة حوادث لا أثر لها ان هي تكررت على وتيرة
واحدة ونقط بعينه خلال تتالى الاجيال ، وفي مختلف النواحي . فانه من الاربع
لتجارة الارواح ان تنتج الامم حاصلات مختلفة باختلاف مواقعها على كرة الارض
وتعرض بها في سوق الانسانية بحيث يكون كل نتاج منها متمم وضرورى
لغيره من النواتج . أما ما أريد أن أقدر هنا حقيقة أن الهند منذ بدء حياتها قد ووجهت
بمجموعة من الحالات الخاصة ، لم تفقد شيئا من مؤثراتها . فان أهل الهند ،
خضوعا لحالتهم التي حوطتهم في الحياة ، قد فكروا وسبحوا مع الخيال ،
وجهدوا في الحياة وتألموا ، وغاصوا الى اعماق أغوار الوجود ، فحققوا شيئا من
الثابت أنه ذو قيمة كبيرة في نظر أفوام تمشى تاريخهم في طريق من النشوء
مخالف للطريق الذي تمشى فيه تاريخ الآخرين . فان الانسان الكى بكل نمائه
يحتاج الى كل العناصر الحية التي تؤلف بين أجزاء حياته المتبخالطة . وهذا هو
السبب في أن غذاءه يجب أن يزرع في حقول مختلفة ، وينتج من منابع متفرقة

المدنية عبارة عن تكوين تميّز كل أمة في أن تجعل رجالها ونساءها في
 الفة مع رقي مثله العليا . فكل مماهد ذلك التكوين وقوانينه وشرائعه وكل
 مافي مثله من الحسن والقبح ، وكل تعاليمه الادراكية والوجدانية انما تتجه
 بكليتها الى تحقيق هذه الغاية . فالمدنية الحديثة ، بكل مافيها من القوات المنظمة ،
 انما تعتمد الى غاية يصبح الانسان معها كاملا طبيعيا وعقليا وأديبا . وهناك
 تتجه كل جهود الامم الى النظر في الطريقة التي يصبح بها الانسان متسودا على
 مافي بيئته ، فتجد أن كل الامم قد حصرت جميع مواهبها في العمل على الملك
 والاستجماع مكتنزة كل ما تصل اليه يدها من العدد لكي تستقوى بها على
 العقبات التي تعترض سبيل غزوها أو تقف سيرها . لقد حصرت الامم كل
 همها في تنظيم حقوقها فهي تتحارب الطبيعة طورا وتحارب أمما أخرى طورا آخر .
 ولهذا تجد أن معدات قتالها قد أخذت تزداد قوة وفتكا كل يوم ، وان آلاتها
 ونظمها ومستحدثاتها قد اطردت الزيادة فيها بنسبة مروعة . ومما لاشك فيه أن
 ذلك وجه من الانتاج جدير بالفخر ، ودليل محسوس على قدرة الانسان في
 التسود على قوى الطبيعة ، تلك القدرة التي لا تعرف حائلا يصدعا عن غاية ، ولا
 تنشد من غرض سوى أن يسود الانسان على كل شيء في هذا الوجود

كذلك نجد الحال في الهند القديمة . فان شعوبها قد تملكها شعور دفع بها
 الى بلوغ مثل أعلى من الكمال ، حصرت كل همها في سبيل بلوغه ، ولكن لم يكن
 الغرض من الوصول الى هذا المثل حياة القوة . لهذا تجد ان هذه الشعوب قد
 أهملت في تهذيب كفاياتها لتبلغ بها الى أرقى حد ممكن ولم تحاول أن تنظم
 رجالها في صفوف تستخدم للهجوم والدفاع ، ولا للتعاون في استجماع الثروة ،
 أو السيادة في عالمي الحرب والسياسة . فان المثل الذي رمى الى تحقيقه رجال
 الهند قد جذب أكثرهم نبوغا أو أشدهم على الحكمة ا كبابا ، الى حيث يتمتعون
 بحياة بعيدة عن كل شيء الا عن التأمل الذهني ، وما من ربية في أن العمل
 على حياة تلك الكنوز التي استجمعوها بهذه الطريقة خير الانسانية بنفوذهم
 الى صميم الاسرار التي تحوط الحقيقة وتحجبها عن الانظار ، قد أفقدهم كثيرا
 مما كان في مستطاعهم أن يتمتعوا به من ضروب النجاح العالمي . غير أن انتاجهم
 هذا ، من وجهة أخرى ، لانتاج جدير بالاعجاب تحقيق بالفخر العظيم . فانه

لدليل سافر على أن الآمال الانسانية لا تعرف حداً ولا تقف عند غاية ،
وانها لا ترمى الى قصد اللهم الا الى تحقيق الانهائية و ثبات وجودها الحقيقي
لقد كان منهم ذو الفضيلة ، وذو الفعل ، وذو الشجاعة وكان منهم الياسيون
والملوك والامبراطرة الذين حكموا تحت سماء الهند . ولكن الى أية فئة من
في هذه الفئات تنظر عين الهند لتنتخب منهم من يمثل حقيقة الانسان ؟ نظرت
الى الريشي Rishis ومن هم الريشي ؟

« هم أولئك الذين بعد أن تحققوا من الاندماج في «الروح الاعلى» بالمعرفة ،
قد ملئوا حكمة ، ولما ان وجدوه في وحدة مع الروح البشري قد اصبحوا في
الفئة تامة مع النفس الكامنة . وبعد أن حققوا وجوده في القلب ، تحرروا من كل
الزعات التي تؤدي اليها الانانية . وبعد أن اثبتوا بالنجربة أنه كائن في كل أوجه
النشاط التي تظهر آثارها في نواحي الوجود قد قنعوا بالهدوء والطمأنينة .
هم أولئك الذين بعد أن بلغوا الى درجة الاتصال بالله الواحد الفرد من كل
الوجوه قد حصلوا على السلام الابدي ، فالتحدوا بالكل ، واندمجوا في حياة
الانهائية . »

وعلى هذا ترى أن تحقيق علاقة الانسان بالكل ، والاندماج في كل شيء من
طريق الاتصال بالله ، قد اتخذ في الهند على أنه الغاية ، وأنه القصد الأخير الذي
يجب أن تسعى له الانسانية .

في استطاعة الانسان أن يهدم ويخرب ، وأن يكسب ويجمع ، وأن يخترع
ويستكشف ، ولكن عظمتة الحقيقية تنحصر في أن روحه يستطيع أن يدرك
الكل . وليس لسجن النفس الانسانية في غلاف من العادات الجافة من معنى ، اللهم
إلا الفناء المحتوم اذ تكتنفه في تلك الحالة اعاصير من أعمال الحياة العمياء تلف
حوله لئلا فتعجب عنه الحق كما تحجب الزواجر الترايبية نهاية الأفق عن الابصار .
ولا مزية في أن هذا يهدم حقيقة وجوده ويذهب بعامية حياته ، التي هي لدى
الواقع ليست بشيء سوى روح الفهم الحقيقي لطبيعة الاشياء . وفي الحق أن الانسان
ليس عبدا لنفسه ، ولا للطبيعة . إنه عاشق محب . فخرته وواجبه ينحصران في الحب ،
الذي لا معنى به الا كمال العلم وتمام الادراك . ومن طريق هذه القوة . قوة العلم والادراك
والوئوف على حقيقة وجوده ، يتحد ويندج في «الروح الاعلى» الممثل في كل شيء .

والسكائن في كل شيء ، والذي هو لدى الواقع شهيق روحه وزفيرها . وحيثما يريد الإنسان أن يستعلي بنفسه منازعاً بقية الموجودات مزاحماً كل ما يحف به ، ليحوز بذلك درجة أعلى من درجة متسوداً على كل الأشياء ، فهناك يبدأ انفصاله عن (الروح) وهذا هو السبب الذي من أجله يصف (اليوبانيشاد) كل الذين وصلوا إلى الغرض الأخير الذي ترمي إليه الحياة الإنسانية بأنهم (في سلام) وأنهم مع (الله) ويعنون بذلك أنهم في النفاة تامة مع الإنسان والطبيعة ، وبذلك يصبحون في حلقة غير مفصومة من الاتحاد مع الله .

إن في تعاليم المسيح عيسى بن مريم إشارة إلى مثل هذا إذ يقول - انه لا أهون على الجمل أن ينفذ في سم الخياط من أن يدخل غنى ملكوت السماوات . وليس لهذا من معنى الا أن كل ما ندخر لا نقسنا هو بمثابة قاصل يفصل بيننا وبين بقية الأشياء . او بمعنى أوجز - أن حطامنا هي منتهى أفقنا . فان من يعكف على استجماع الثروة والفنى ، يصبح عاجزاً عن ان يلج ذلك الباب الذي يفتح امامه مجال الإدراك الحقيقي لطبيعة العالم الروحي ، عالم الألفة الكاملة . ذلك لان نفسه تكون مستمرة الانتفاخ بالمادة ، دائمة الانبعاث بالانيويات . وينحصر مجاله في ما بين تلك الجدران الضيقة التي تقيسها من حوله مستجمعاته المحدودة .

اما التعاليم التي يدعو اليها « اليوبانيشاد » فهي - انك من أجل ان تصل إلى الروح الاعلى - يجب عليك أن تدرك الكل . وانك في بحثك وسعيك وراء النفس دائماً تترك كل شيء . لتحصل على أشياء قليلة ، وان هذا ليس سبيل الاتصال به ، الذي هو الكمال الصرف ، والخير المحض .

من بين فلاسفة أوروبا المحدثين ، فئة على الرغم من كونهم مدينون ، بطريق مباشر او غير مباشر « لليوبانيشاد » وعلى الرغم من انهم لا يعترفون بهذا الدين ، يعتقدون بان « براهما » الهند عبارة عن تجريد صرف ، وذهول فكري محض ، وانكار كامل لكل ما هو كائن في هذه الدنيا . وعلى الجملة ان الموجود اللامتناهي لا يمكن أن يكون له وجود الا في عالم الغيبيات وليس بعيد ان يكون هذا المذهب او ما يقاربه لا يزال منتشر بين فئة من اهل الهند . غير ان هذا غير مطابق لمقتضى الحالات التي يقوم عليها روح العقل الهندي وقوامه . فان هذا المذهب ، على العكس من ذلك ، عبارة عن وسيلة عمالية لتحقيق وجود الانهائية واثبات

حلولها في كل الاشياء التي ظلت كل الا عصر باثة وحيها ، نابذة سرها . والفروض علينا ان نوقن بان :

« كل ما في الدنيا من موجودات مذبذب في الله . إني انما اسجد لله مرة تلو اخرى . لاني اراه في النار وفي الماء وهو الذي يحل في كل نواحي العالم وفي المحصولات التي نجونا بها الارض كل عام كما هو في الاعشاب الدورية الحياة »

هل يمكن أن يكون هذا هو الله المجرد عن كل ما في الـكون ؟ على العكس من ذلك ، فان هذا المذهب لا يزودنا بان نراه في كل الاشياء لا غير ، بل يلزمنا أن نحياه ونعجمده في كل الموجودات التي يتضمنها العالم . فان موقف الرجل « الشاعر بالله » في اليوبانيشاد ازاء الـكون ، لموقف يتجلى فيه شعور التقديس العميق والعبادة الحقة . فان موضع عبادته موجود امامه في كل شيء ، وحيثما كان . ان معبوده هو تلك الحقيقة الحية السرمدية التي تثبت وجود كل الحقائق التي ندركها . وليس هذا الحق بمطوى بين جنبات المعرفة وحدها ، بل هو كامن في تضاعيف العبادة والخضوع . أنا نسجد له حيثما كنا ، مرة بعد اخرى . أنه ليتجلى في سورة « الريش » الذين يهيمون بكل من في الدنيا في اخذة . افتتانهم الفجائية المملوءة بالشفف والجلد : صامحين

« اصغوا اليناء ، أنتم يا أبناء الروح الخالد ، أنتم يا من تمشون في المأوى السماوي . لقد عرفنا الذات العملية التي تنير اضواءها الخاطفة من وراء الظلمات ؟ »
لسنا نجد شغفا شاملا في تجربة مثل هذه كلها يقين ، وكلها إيجاب ، حيث نمجز عن أن نجد أقل أثر للابهام أو السلب ؟

لقد بشر « بوذا » ، وهو أول واضع للذات الحية العملية من مذهب « اليوبانيشاد » بمثل هذه الرسالة حيث يقول

« مع كل شيء ، سواء ا كان علاء أم حضيضاً ، بعيداً أم قريباً ، مريئاً أم غير مريئ ، سيكون لك صلة من الحب غير محدودة فلا تشرب بماء او نهمة للقتل . فانك اذا عشت تحت تأثير مثل هذا الوجدان قاعداً أو ماشياً جالساً أو مضطجعاً حتي تنام ، فهناك تكون « براهما فهراً » أو بعبارة اخرى —
تكون حياً متجركا جذلا في براهما »

هذا هو الروح ؟

يقول اليوبانيشاد : —

« هو الموجود الذي ينبعث من ماهيته ضوء الكل وحياة الكل . هو وجدان العالم .
- براهما »

لنحسب بالكل . ولنذكر كل شيء . ذلك هو الروح . نحن كائنون في وجدانه
جسماً وروحاً . إن من طريق وجدانه تجذب الشمس الأرض . ومن طريق وجدانه
تنتقل موجات الضوء من سيار إلى سيار . وليس ذلك في الفضاء وحده بل :
« ان هذا الضوء وتلك الحياة ، هذا الموجود الكامل الشعور بكل شيء » ، هو
في روحنا أيضاً »

هو كامل الوجدان في المكان . أو عالم الامتداد . كامل الوجدان في الروح :
أو عالم الانهائية .

فمن أجل أن نحصل على وجداننا العالمي ، يجب علينا أن نوحّد بين شعورنا
وذلك الشعور غير المتناهي ، المالىء لكل خلاء . الكائن في كل شيء .
والحقيقة أن التقدم الانساني الصحيح يتفق مع هذا التوسع الكلى في مدى
الشعور . فان كل ما حصلنا عليه من شعر وفلسفة وعلم وفن ودين ، انما هي
وسائل تؤدي الى الذهاب بما يرمى اليه وجداننا الى عوالم أنقى طبيعة ، وأوسع
جنبات . أن الانسان لا يحصل على مرافق أكثر بمجرد حصوله على امتداد أوسع .
فهو أبعد عن الحصول على مرافق ما من طريق السلوك الظاهري . ذلك لان
مرافقه تمتد بمقدار ما يكون في كيانه من حق . وحقيقته تقاس دائماً بنسبة
لمرامى التي يرمى اليها وجدانه .

اننا على أية حال يجب أن ندفع ثمناً لما نحصل عليه من حرية الوجدان . وما
هو هذا الثمن ؟ انه ينحصر في أن نطرح أنفسنا بعيداً . فان روحنا لا يستطيع
أن يحقق وجوده الا بانكار ذاته وفي هذا يقول اليوبانيشاد : —
« انك سوف تربح بالبذل . انك سوف لا تشهى أو تطمع »

من نصائح « الغيتا » Gita أن نعمل بعيداً عن حب المنفعة . وأن
? ننظر النتيجة . على ان كثيراً من الناظرين في هذا الامر الخارجين عن سلطانه ،
ستنتجون من هذه التعاليم أن تصور العالم على اعتبار انه غير حقيقة وانه وهم .
لبيء كائن من تضاعيف ذلك الامر الذي يدعو به الغيرية والخلو من الغرض في

الهند . غير أن عكس هذا القول صحيح من كل الوجوه .
 فان الانسان الذي يتطلع الى تحقيق عظمتة وحده ، ينزل من قيمة كل
 شيء آخر في الوجود . فاذا قارن بين نفسه وبين بقية العالم ، خيل اليه أن تلك
 البقية شيء غير حقيقي . اذن فمن اجل أن يصبح الانسان مدركا لحقيقة الكل
 ينبغي له أن يكون حرا طليقاً من كل القيود التي تقيد به رغباته الشخصية .
 وهذا النظام من الواجب علينا أن نخضع له اذا ما أردنا أن نمهد لأنفسنا سبيل
 القيام بواجباتنا الاجتماعية . واقتسام الاحمال التي ينبغي تحملها اخواننا في الانسانية
 وكل جهد يصرفه الانسان لكي يحوز حياة أوسع مدى وأرحب افقا ،
 يحتاج منه أن يصبح قائماً « بالرجح من طريق البذل وأن لا يطمع » وعلى هذا يتعين علينا
 أن نوسع تدرجنا وحالا على حال من حيز ادراك الوحدة مع الكل لكي نكون
 عاملين حقاً لما يجب أن تعمل له الانسانية .

لم تكن الانهائية في الهند عدماً خالياً من كل شيء . فان « ريشي » الهند قد
 حققوا لنا : —

« أنه من أجل أن نعرفه — الروح الأعلى — في هذه الحياة يجب أن نكون على
 حق . واذا لم نعرفه ، في هذه الحياة ، فتلك وحشة الموت وظلمة الفناء . »
 وكيف نعرفه اذن ؟

« بان نحقق وجوده في جزئيات الاشياء وفي الكل . »
 ليس فقط في الطبيعة ، بل في الاسرة ، وفي الجماعة ، وفي الحكومة . وكلما
 ازددنا تحققا ادراك العالم في الكل ، فذلك خير لنا . فاننا في اللحظة التي
 نمجز فيها عن تحقيق ذلك نكون قد ولينا باوجهننا شطر الفناء .

وما من شيء يملؤ جوانحي غبطة وسرورا وأملا عريضاً في مستقبل
 الانسانية ، أكثر من تذكرى أنه مضي زمان ، منذ أقدم العصور ، وقف فيه
 أنبياؤنا الشعراء تحت تلك الخيوط الذهبية التي كانت ترسل بها الشمس في سماء
 الهند ، وحيوا العالم تحية الاعتراف باوحد القربى التي تربط أجزاءه . ولم يكن
 في هذا شيء من خيال الفكرة الناسوتية (١) لم يكن فيه شيء من مرآى الانسان
 منعكسا في كل مكان من صور يكبرها الوهم ويضخمها الاسراف في المبالغة ،

(١) انتر بومور فزم — الناسوتية أي الفكرة القائلة بتزويد الله بشيء من الخصائص الانسانية

ولا من تخيل المأساة الانسانية تمثل منتفخة مضخمة على مسرح الطبيعة العظمى .
على العكس من هذا كان فيها معنى واحداً ، هو اجتياز حدود الفردية ، ليصبح الانسان
اكثر من انسان . ليصبح واحداً مع الكل . لم يكن في ذلك شيء من الاعيب الخيال
والتصور . بل كان تحرير الوجدان والادراك من الغاز النفس البشرية ومبالغاتها
المحضة . لقد شعر هؤلاء الكاشفون القدماء من أعماق عقولهم بان نفس تلك
القوة التي تهتز متشككة في صور شتى تكون أجزاء العالم ، هي بذاتها التي تظهر نفسها
في أعماق وجودنا وفي صورة ندعوها الوجدان . وأنه لا اتصال للوحدة
الخالدة . لم يترأ هؤلاء الكاشفين من صدع أو انشعاب خلال رؤاهم الاشعاعية لدى
مرآهم الكمال الكلى . فانهم لم يؤمنوا حتى بالموت نفسه ، كقوة في استطاعها أن
تحدث صدعاً في قوام الحقيقة قالوا : —

« ان في التأمل موت كافيه خلود » .

انهم لم يؤمنوا بفارق حقيقي بين الحياة والموت . حتى لقد قالوا قائلين :
« انه الحياة التي هي الموت »

لقد هللوا بكل ما في جوانحهم من غبطة وسرور :

« للحياة في مظهرى الاقبال والادبار . »

« ان كل ما مضى مخبوء في الحياة ، وكذلك كل ما هو آت . »

لقد عرفوا بان مجرد الظهور والافول اشياء سطحية كالامواج التي تتكسر
على سطح البحر . ولكن الحياة التي هي باقية ، لا تعرف الانحلال ولا الانتقاص .
لقد نشأ كل شيء من الحياة الخالدة . وكل شيء يهتز متراوحاً مع الحياة .
لأن الحياة لا نهاية غير محدودة

هذا هو الميراث النبيل العظيم الذي تلقيناه عن آباءنا الاولين . وانهم ليطلون
علينا من شرفة الابدية لينظروا كيف نختص بذلك المثل الاعلى من حرية الوجدان .
وليس يقوم هذا المثل على قواعد من العقل وحده أو العاطفة وحدها . ان له
اتساعاً أدبية اخلاقية يجب أن تخرج الى حيز الفعل والتنفيذ .

قيس في اليوبانيساد : —

« ان الذات العلية محققة الوجود في كل الانحاء . اذن فهي خير محض

مندج من الكل »

للإنسان في وحدة حقيقية من المعرفة والحب وتبادل المصالح مع كل شيء .
ولنحقق وجودنا الذاتي في الله الموجود في كل شيء . تلك هي ماهية الخير .
وذلك هو جوهره . وهذا هو الباب الذي نلج منه الى تعاليم اليوبانيشاد : —
« الحياة غير محدودة . »

قبيل السحر (١)

في تلك الساعة التي تتناجي فيها الارواح ، وترسل بسيالاتها السرية الى
اعماق هذا الوجود ، عساها تنزع منه سر البقاء والفناء ، كنت أسير وشاطيء
النيل ، وقد أرسل القمر باشمته القضيبة الوضاءة على اشجار الكافور القائمة
على شاطئ النهر بمقربة من حديقة الاسماك ، فكان يخيل الى أن تلك الاشجار
الباسقة قد استحالت ارواحا مرحة باسمه ، تتلقى ضوء القمر بالراحتين ، لتلقى
بها على صفحة النهر النحاسية .

وعلى الشاطئ الآخر منحدرات كستها الاعشاب . ومن ورائها مزارع
تمتد الى منتهى النظر ، لتنتهي بكثبان من الرمال والتلال القائمة في وسط
الصحراء الفريية ، وهي أشبه بالآمال العريضة اذ تكتنف القلب وقد أوحشته
اللوعة ، وأمضه الفراق . وكانت ظلال الاشجار تكسو الشاطئ وقسمًا من
صفحة الماء يتخايل اليك من ورائه لمان يزكو ويخبو ، فكان أشبه الاشياء
بهذه الحياة وما فيها من مختلف الصور ، أذ ترى في ساعة هنية رضية ، وفي
أخرى عوجاء هوجاء

وأى زمان تنم فيه بمثل مانعت الا في شهرآب ، وأنت بين غياض الارض
والقمر يكسوها باشمته القضيبة الجميلة ، وقد خيل اليك أن صلتك بالعالم
المادى قد قطعت ، ولم يبق لك بهذه الدنيا من رابطة اللهم الاربطة الامل

بفيض به قلبك ، فتخرج سيالاته متسلقة خيوط الاشعة القمرية لتبلغ بك نجما نصيا في أطراف هذا الوجود .

وطالت جلستى تحت شجرة من الاشجار المحاذية لمجرى الماء ، وكانت كثيفة الاوراق ملتفة الاغصان ، ولست أعلم كم لبثت غارقا في طيات نفسى سابحا في فلووات التأمل العميق ، حتى استدار القمر ونفذت الى أشعته اللامعة من خلال الاوراق . فتذكرت مناجاة فوستوس عن لسان جوته ونعته القمر بانه « صديق من لا صديق له » وأى شيء في الوجود كان في مستطاعه أن يؤنس وحشتى وينهض الى التأمل فكرتى ، الا ذلك القمر الراقد بين الاجرام ، وكأنه الدرة اللامعة في بحر من اللازورد هدأت امواجه ورقت صفحته

وذكرت بجانب مناجاة فوستوس قوة الكشف في بصيرة نوستراداموس وتمنيت لو انى اخطي من روح ذلك العراف بالحة تجعلنى اكشف عما سوف يقع لى في الغد القريب ، ولو تمنيت أن اكشف بها ما كان مخبوء لى ان اراه فى تلك الآونة لكنت اصدق حدسا وادق إحساسا .

وما زلت فى مثل هذه الحال حتى نبهنى الى ما حولى صوت لم اتبين ما هو . وكانت الخفافيش الكبيرة على عادتها من التعلق بالاغصان والطيران حائمة حول الاشجار ، هنيهة واردة ، وأخرى صادرة ، وكنت اسمع لضرب اجنحتها فى الهواء خفيفا ما ذكرنى بشيء الا احلام كانت تساورنى فى غفواتى القليلة ، وكنت أرى فيها ملائكة السماء هابطة الى الارض ولاجنحتها خفيف هو اشبه عندى بخفيف اجنحة الخفافيش فى تلك الساعة الرهيبة . على أن ما كان بين نفسى وبين الليل الساكن من تجانس يمثل فى هدوئها ، قد انقطع فجأة ، اذ تبينت ان ذلك الصوت الذى لم اتبين ما هو لاول وهلة ، لم يكن الا صوت المجدف يضرب ماء النهر فى هوادة وتؤدة حتى لا يسمع له صوت تتبينه الاشباح النورانية ، بله ابناء آدم وحواء . وكان المجدف لا يرتفع عن صفحة الماء الا ريثما يتحرك الى الوراء ملامسا وجه الماء برفق ولين ، ليفوص فى الماء من غير أن يحدث ضوضاء ولا جلبة ، نخيل الى أن ذلك النوى يخشى أن ينبه الاسماك فى مسابحها الى اسرائه فى جوف الليل بقاربه الصغير . فقلت فى نفسى لأمر ما يحاذر

النوتى لطم الماء ، ولأعظم من ذلك الامر ما اضطره لان يسرى بقاربه الصغير
فى مثل هذه الساعة من الليل : .

وشق القارب طريقه فوق الماء متوسطاً النهر ثم اخذ ينحدر نحو الشاطئ
فى سكون وحيمة ، غير تارك وراءه من اثر الات موجات خفيفة على صفحة الماء
كانت تأخذ فى التضائل بنسبة بعدها عن سكان القارب الصغير ، وكأنها تتفانى
ولم يكن لى أن اهتم بشىء من كل هذا ، لولم ينبعث من مؤخر القارب صوت
فى نبراته حزن وشجو قائلاً : « الى شجرة الصفصاف » وهى شجرة على مقربة
منى تتدلى أغصانها الى الماء فيجرفها تياره وهى متشبثة بأصل الشجرة فكانت
تلوح لى كأنها الاطفال يتعلقون باذيال أمهاتهم حذر أن يجرفهم تيار الحياة الى
اصهاق هذه الانسانية العاتية القاسية .

ورسى القارب وأفرغ حملة . فاذا به فتاة لم اتبين شيئاً منها إلا أنها حسنة
الهندام رشيقة القد خفيفة الحركات . ووقفت على الشاطئ ، هنيئة كأنها تترد .
ثم قالت للنوتى أرجع من حيث أتيت و انتظرنى حيث أمرتك . وما كاد
القارب يعتمد عن الشاطئ ، فافلا الى حيث اتى ، حتى جلست تلك الفتاة الى
جذع الشجرة واسندت رأسها بيديها ثم فاضت شؤونها بملء ما فى نفسها فى
حسرة وألم .

أمام هذا الهيكل المجسم من الحزن القتاتل ، تلاشت احلامى وآمالى ، ووقفت
امام حقيقة من حقائق هذه الدنيا . فتاة فى مقتبل العمر تهجر كنها فى ساعة
متأخرة من الليل ، فتفرى رجلاً بالمال أو الآمال ليحملها على سطح الماء الى ذلك
المكان المنفرد الموحش ثم يمود من حيث أتى ، وهو منها احذر من
الرقباء ، وأخوف من السمار أن يطلعوا على بعض امره ، وتلك الدموع الفائضة
والشؤون الهتونة تذرف ولا من يعرف أنها ذرفت ولا لأى شىء جرت تنساب
انسباب النهر الراقد تحت قدميها !!!

وما شمرت بعد ذلك بشىء إلا أن الفتاة قد امتشقت قامتها الهيفاء ، ثم تلافقت
بمئة ويسرة ، وكأنها استوحشت فى المكان ، فقالت وكأنها تناجى نفسها :

ما اشد خوفي ! ما اعظم هذا الليل !

فهمت بان أتقدم اليها واحضها العون في ساعة كنت أتحيل أن العون فيها
اهمل في نفسها من رهبة الليل ووحشة المكان . وممن فرت هذه الغادة الهيفاء ؟
ألم تفر من ابن من ابناء آدم تجمعني واياه جامعة النوع والوراثة ؟ ألم تفر من أب
عات سفاك ، أو أخ مستبد متعسف ، أو زوج منحط الاخلاق فاسد النزعات ،
أو حبيب أو عمن نخان ؟ ممن فرت أن لم يكن من أحد هؤلاء ؟

ولقد خيل الى أنى لو انقلبت روحا جائرة تستجلي الاسرار من بين طيات
القلوب ، وحنايا النفوس ، ثم استطعت أن اندمج في جوانح هذه الفتاة ساعة
لاعرف ، وما يناجيها به القلب الخافق اليأس ، وما يقودها اليه العقل المضطرب
المرنج ، وما تستهويها اليه نفسها من أمل في المستقبل أو يأس ، وما تناجيها به
روحها المضطربة بين جنيتها ، اذن لاستطعت أن اعرف أن ذلك القلب قد جرحه
الحب ، وأن ذلك العقل قد نكثت فعله تباريح الغرام ، وأن تلك النفس قد
هدها الهجران . وأن تلك الروح قد امضها الأذى والكفران .

واخذت تتسلق منحدر الشاطئ في ثناقل لا تكلف فيه . حتى اذا بلغت
مغارس الاشجار هب الهواء شديداً فامت عليها فضل أرديتها وتأهبت للمسير .
ثم التفتت الى الوراء والى اليمين والى الشمال في فزع ورعب ثم سارت سير الخائف
الوجل مستترة بظل الاشجار حذرة خائفة . هلعة والهة .

أ أتبعها ؟ أم اترك مناظر الانسانية تمر أمامي من غير أن اعيرها اهتماماً ؟
أأرافقها في ذلك الطريق الذي سلكته غير راضية ؟ أم ابقى حيث أنا اناجى
القمر ويناجيني حتى تهزم نفثات الصبح جيوش هذا الليل البهيم . وما زالت
هذه الخواطر تتنازعني حتى عازمت على أن أتبعها : ولما سمعت وقع إقدامي
وقفت و اسندت ظهرها الى جذع شجرة كانت على مقربة منها و صاحت :
من أنت ؟ من أنت ؟

لا تخافى ايتها السيدة ! شخص يريد أن يمد يد المساعدة ليد فقدت امينها ؟
هل معك سلاح ؟

نعم معي .

اذن سر امامى . لا بل سر خلفى ودافع عنى . فان الوحوش الكاسرة
لا بد من أن تتبعنى عما قليل .
إلى أين أنت ذاهبة ؟

الى حيث أستطيع أن اختفى عن الانظار . وأنسى الى مالا يد .
اذن فسرى وانا تابعتك الى حيث تريدن .

فهمت بالمسير ثم توقفت عنه . ثم اطرقت الى الارض هينة ثم رفعت رأسها
مرسلة زفرات حرى . ثم سارت فتبعتها .

ومازلنا نسير حتى حاذينا جسر قصر النيل ثم اجتزناه ، واذا بها تحتطى عربة
وتأمرنى بلهجة غريبة أن اجلس الى جانبها وتأمر السائق أن يذهب الى محطة
السكة الحديدية وكان النهار قد ملأ الارض بضياءه وبدأ الناس ينسلون من مآويهم ،
فكانت كلما رأيت خيطاً من خيوط النهار ازدادت فزعاً وألماً . وما زالت طول
طريقها تستعدى السائق ، فيلهب الخيل بسوطه حتى اذا بلغنا الى حيث أمرت .
قالت رافقنى ، لقد تعهدت بالدفاع عنى حتى أتركك !!!

واذا بها فى عربة من عربات الدرجة الاولى فى القطار الاول الذى يغادر محطة
القاهرة الى الاسكندرية . وقبل أن يتحرك طلبت الى أن أعطيها عنوانى احياء
لذكرى هذه الحادثة واعترافاً منها بيدي التى أسديتها . فسألتها أن تعطينى عنوانها
واسمها فقالت سيصلىك نبيء بعد حين . وتحرك القطار وظلمت واقفاً حتى غاب عن
نظري ، ثم أخذت حوادث ذلك الليل تمر أمام خاطرى الحادثة بعد الأخرى وقد
هوم باجفائى الناس ، فرجعت أدراجي لأقضى حاجة الحسد بعد أن قضيت حق
الروح فى ليلة ماتهاً مثلها الالهة القليلين من أمثال الهائمين بحب الطبيعة يناجونها
بين الفياض وعلى شواطئ الأنهار

وانحدرت الأيام . وكادت ذكرى هذه الحادثة تموت فى أعماق الذاكرة موت
غيرها من الذكريات . ولكن شاءت الأقدار أن تحيي الذكرى ، وأن تطبع الحادثة
فى صفحات نفسى الى الأبد .

ففي ذات نهار حمل الى البريد خطابا مسجلا أثبتته هنا بحروفه لعله يترك في النفوس ذكرى ، تكون للآباء عظة ، ولنبات حواء سلوى .

باريس في ١٠ سبتمبر سنة ١٩١٠ . . .

سيدى

اليوم اكتب اليك لافضح ذلك السر الذى أردت أن يدفن معي ويلحق بى في قبرى . غير أنى بعدان أطلت التفكير وامعنت فى النظر وتجلت لى طبيعة الاشياء فى ضوء من هدوء النفس وراحة الضمير ، لم أشأ أن أطوى سرى بين جوانحي وأضن على الفتيات أمثالى ، اللاتى رعى بهن سوء الطالع ونحس الحياة فى أحضان من لا يعرفون لهذه الحياة من معنى سوى المال ولاشئ شواه :

نشأت ياسيدى فى مجبوحة من الحياة وخفض فى العيش فى اكفاف أب ماعرف من حقائق هذه الدنيا الا القليل ، ومن سوء طالعى أن تجاربه فيها كانت أقل من معرفته بها . ماعرف فى هذه الحياة لشيء من قيمة الا أن يجمع ما يستطيع أن تصل اليه يده من حطامها الزائلة ، وما فتى يسعى اليها وتسعى اليه حتى أصبح ممن يضرب بغناهم الامثال وما زالت الأقدار تحط عليه مما تفى به على أمثاله من أهل الدنيا المستميتين فيها العاكفين عليها ، حتى خيل اليه أن ترك أولاده بلا عناية من التربية تتساوى مع من كان فى مثل غناه ، موضع انتقاد الاهل والاقربين ، وكنت واخوای لانزال فى سن يسمح بالتربية فعهد بى الى مدرسة راقية من المدارس التى تعنى بتربية كل منهن فى مثل حالى من بسطة الرزق ، وعهد باخوى الى معاهد أخرى لا يلج بابها الا أولاد الاغنياء . ونسنا على هذه الحال ردحا من الزمان ، حتى اذا اكتملت سنى العشرين ، عدت الى المنزل احمل اجازتى من المدرسة ، حائزة لاعلى درجاتها ، واذا باخبار أخوى تترى على والدى ، وكانا فى اوربا بأنهما عكفا على عادات أهل اليسار فى مدائن الدنيا الجديدة فانهمكا فى ملذاتهما وراحا بمجربان وراء ملاذهما يتناهبان حلبتها بكل ما أوتيا من قوة الشباب والمال . ولم يكن نجاحى واخفاقهما سببا فى أن أكبر فى عين أبى ، ولم يكن صغر الدنيا فى عيني بسبب لان أكبر فى عينيه ، بل بدأ ينظر الى كلما رأى نظرة يلقيها على فى ازدراء

وكراهية ما تبينت لها من سبب الا ذات ليلة وقد سمعته يقول « اليس من يكذ الدنيا أن تنجح بنت ستكون يوماً زوجاً لرجل غريب ، ولا ينجح أحد الولدين ليحفظ اسمي ويفتح بيتي » فكان نجاحي كان على شؤماً واكباني على الدرس والتحصيل نكبة ، مالى بدفعها من يد ولا سلطان .

وشاءت الأقدار أن يموت أبى وشيكا وأن يحضر أخوى من أوربا مزودين بكل ما أخرجت المدنية الحديثة من مفاسد المترفين المنقطعين الى هو الدنيا واحلامها الزائلة . وما هي الا بضعة أشهر حتى بدأ الخراب يحل ببيت أبى ، فبيعت الخيول المطهمة والعربات الفخمة ولحق بهذه الاثاث بعد أن رهنـت الأرض والمقارنات وذهبت بها جفون الغانيات ، وأهداب أهل الخلاعة والفتنة

وماربحت من كل ما خلفه لى أبى الا المتاعب والشقاء . اذ كنت بين تصرفات اخوى قريسة النهم والجشع . وذبيحة الطمع والكبرياء . فلم يخلنا لى الا حثالة مما ترك أبى كانت لهم ملاذا من حاجات هذه الدنيا ان تضطرهما الى مد اليد تسولوا واستجداء من أهل اليسار . وعشنا بعد ذلك ماعشنا فى عيشة لاهى بالرغبة ولا هى بعيشة الفقر والعوز . بل عشنا فى كفاف ، وبعد عن السؤال لما فى يد الناس . وظللنا على هذه الحال بضع سنين بلغت فيها مبالغ الشباب واستدارت ملايحى استدارة الانوثة اذ تكون فى مثل ما كانت جياشة بالآمال فائضة بالاحلام . وكان على مقربة من البيت الذى تشأت فيه أسرة من ذوات الحول والطول والمجد القديم . نشأ فيها شباب مكتمل الصفات . فمن دماثة فى الخلق الى صفاء فى النفس . ومن استقامة فى السلوك . الى نبالة فى المرامى والغايات . ومن جمال فى الخلق الى رصانة فى الحديث وذكاء فى العقل . ونبوغ فى الدرس والا كباب عليه .

وكان على مثل حالى من الانصراف عن زخارف هذه الدنيا الزائلة الى باقياتنا . فنشأت بين قلبينا الفة شبت مع الايام فكانت عطفاً ثم حباً . ثم استحالت مع الزمان هوى أكيداً . فغراماً ثم هياماً

ولم يكن عندى فى هذا الشاب من عيب أراه فيه . ولم يكن عنده من عيب يراه فى . على أنه من الجائر أن يكون لكلينا عيوب ومناقص . ولكن على أية

حال فالحب أهمي وكفى باني كنت اراه على ما وصفت . وكان يراني على مثل ذلك .
على أن كمالات هذه الدنيا لا بد من أن يعثورها النقص . ولا بد من أن
ينتأبها شيء . يفسد ناحية من نواحيها . وكان ذلك الشاب مضرب هذا المثل
فقد كان فقيراً . وان كان جاء أسرته ودمائة اخلاقه ورضى صفاته خير عوض
عن فقره لمن كانت مثلي تستطيع أن تعيش واياه بما تملك في كفاف من العيش
وفي غير حاجة للمكدح في سبيل هذه الحياة المرة .

وتواعدت واياه على أن يخطبني من أكر أخوي . ففعل . وانتهى الامر
بان قبلت الخطبة . ولم يبق بيننا وبين السعادة التي ظلمنا ننشدها السنين الطوال
الا خطوات قصيرة . كنا نعتبر انها شكلية أكثر منها موضوعية . ولم يكد
تطمئن الى هذه الحال قلبانا حتى برز لنا في ميدان هذه الحياة فارس
جوال يمتطي الفأ من الفدادين العامرة في افصى الصعيد بما يلحقها من
القصور والبساتين الغناء . وهبط علينا هبوط الصواعق اذ تنقض على هشيم
فلا تترك منه الا رماداً . وهكذا الدنيا يا سيدى حول قلب ما تركت لقلب ما تمنى
ولا خلقت لنفس ما املت .

وكان هذا الفارس في الحلقة السادسة من عمره . ما عرف في الدنيا كثيراً
ولا قليلاً . ولا ذاق لغير الجمع طعماً . ولا عرف لغير الفرس والقلع قيمة في هذا
الوجود . بل كان من ندماء أبي ومن اصدقائه المقربين . سمع باننا في حاجة الى
العمون وأن اخوى يعيشان في كد من قته ما بين يديهما بالقياس الى حاجتهما فهبط
عليهما ليعينهما بماله . وليسترد في نظير رأس المال فائدة هي يدي . وطلب من
أخي أن يزوجني منه . وأن يجعل لمساعدته ايانا مبرراً هو النسب

وانت يا سيدى اعلم بحاجة من كان في مثل حال اخوى الى المال وكيف
يستهوئها الاصفر الرنان يبذل بغير حساب لحجة تقضى وغرض يرجى . فعرض
على اخي ذلك العرض في صيغة من يعتقد أنه شيء واقع لا محالة وان زواجي
ممن شارك قلبي السراء والضراء ، اصبح في حيز المستحيل . ثم انتقل امام تشددى
في الرفض من لهجة الشدة الى اللين يذكركني بمنزلتنا من الغنى والجاه والعز الدنيوى
وأن ذلك الرجل يحفظ علينا أبهة الحياة ويكفينا حاجات الكفاف ويزودنا بما
نحتاج اليه من زخارف هذه الدنيا وكمالياتها . فلم ازدد الا عناداً ولم يلق منى الا

تصعباً لم تجد أمامه من حيلة إلا أن يعرض على عرضاً يندى جبيني الآن أن أقصه عليك في هذا الخطاب . عرض على ذلك العرض الذي لا يمكن أن يجول في خاطر اللهم إلا خواطر أمثاله من نائم كل الأثم بأن ندعوهم من متمدينى هذا الزمن الفادر الجائر . عرض على أنه لا بأس من أن أتزوج بالغنى الجيب المعدم النفس لاستعين بفنائه على أن أتجمل لمن يحبه قلبي ، وإن أخون زوجي في سبيل هواي . وأنه لا يعدم وسيلة يوثق بها عرى الصداقة بين الزوج المخون وبين الحبيب الخائن . ولا تسل ياسيدي عما انتاني في هذه الآونة من ألم وأسى . على اننى لم أشعر بشيء إلا ان يدي قد أهوت على وجه أخى بصفحة اليمى ما ادركت بعدها شيئاً إلا اننى خرت انى انغمى على وغشى على باصرتى . وانى صحت مستنجدة فلم أنجد ، وبكيت متألمة فلم أواس ، حتى عادت الى قواى وانتبعت الى ما حولى واذا بى فى وسط ذلك النهر المزبد الذى تلقانى الشاطىء منه حيث التقينا سجنى بين جدران السفينة عدة أشهر طوال لأرى فيها انساناً احده بكلمة ولا يزورنى فى غرفتى الا خادم يحمل الى طعام ما كنت أصيب منه الا ما يحفظ على الحياة ان تذهب ضحية لمثل هؤلاء الكواسر الاشقياء . وماتت كرت أن ذلك الخادم قد نقل لى خيراً أو زودنى برد سؤال عشرين يوماً حتى يئست من الحياة ، واذا بى أعلم أن الخادم اصم أبكم ، اختاره لى أخى وخطيبى الشيخ مبالغته فى ايدائى وتفتنا فى ايلامى ، حتى أريض لا رادتهما ، وأنى برأسى أمام عنادهما .

وحاول أخى أن يقنعنى باتباع ما أشار به على عدة مرات فلم أجده من وسيلة أتخلص بها منه إلا أن اكون فى مثل ما كان الخادم الذى عهد اليه بخدمتى . صماء بكاء . فلما اعيتهما الحيل وكانا قد اختارا لمرسى السفينة مكاناً منفرداً لا يصل منه صوتى الى اذن . ولا تنفذ منه شكواى الى قلب ، فكرا فى ان يهرانى بالمال والمصاغ . فحضرا ذات يوم واقتحما على باب غرفتى بمد ان عيت من مقاومتها ، واخذنا يمينانى الأمانى والقي الشيخ الممرور كيساً من النقود بين يدي فيه خمسمائة من الاصفر الرنان وحقيقية ملئت بأمن الجواهر والدرر

على اننى لم تخنى ارادتى فى كل مامر بى من مصائب هذه الحياة . فتظاهرت
بالرضى وابتسمت . نخيل اليهـما ، لغرورها وجهلهما ، اننى وقعت لهما فريسة
فتركاني راضيين عاقلين على ابتسامتى فى الهواء قصوراً منهارة الاساس متداعية
القوائم . وتكررت زيارتهما وتلاحقت هداياهما حتى اجتمع لدى جزء من المال
غير يسير .

ولكن كيف الفرار من بران هذه الوحوش القاتلة الفاتكة ، المزودة من
شهواتها بقوة اجرامية مؤصلة فى تضاعيف الفطرة ، ولم يزدها الكسب الامعانا
فى التشكل باخبت الاشكال ؟ وكيف يمكن أن أخرج من ذلك السجن المحكم
الذى تحرسه الأمواج الصماء الى سماء تلك الحرية التى انشدها ؟ لم أجد من سبيل
الى ذلك الا الحيلة فلبأت اليها . وهأنذا بين أحضان من أحب أكتب اليك من
باريس عاصمة الحرية وعروس مدائن القارات الخمس .

على الشاطئ المقابل لسفينة سجنى رمال ممتدة الى آخر ما ينتهى النظر ، وعلى
المنحدرات أعشاب طويلة كان يحتمى بها عند الظهيرة صياد يحمل شبكة صيـاح كل
يوم ليرتاد ذلك المكان . وكنت أرقبه من فوق السفينة ويرقبني من غير أن
أستطيع أن أوصول اليه كلمة ومن غير أن يصل الى بنجواه . وكنت قد تبينت من نظرانه
الطويلة التى كان يرسل بها الى مكاني بان حب الاستطلاع قد تملك منه حواسه وأخذ
عليه الزمام . فكان يقف على الشاطئ ، وقفات طويلة يرسل بها الى سفينتى
نظرات حيرى . فكان يخيل الى أنه يريد أن يقرأ فى لوحة السماء ما يجول بخاطر
من أفكار وما يحوم بعقلي من هواجس . ومضت على ذلك أيام طوال من غير أن
ينتبه الى ذلك أحد . وما كان يخيل الى فى ذلك الحين الا أن ذلك الرجل رسول
هبط من عالم مجهول أتى لينقذنى من بلواى وبنجذنى فى ساعة هى فى أخرج
ساعات حياتى ، بل أخرجها جميعا . ذلك لان اليأس كاد يملكنى فسيبحت خواطرى
فى فلات الخيال

وكيف يستطيع ذلك الساذج المسكين أن يرضى ما فيه من حب الاستطلاع
والوقوف على حقيقة امرى ؟ لقد كان فى امرى ما يريب ، وكان فيه ما يجذب
قلوب امثاله الى معرفة حالى لهذا تذرع الى غرضه بشتى الوسائل حتى وقع

على قارب صغير استأجره ليتجول به في النهر متظاهراً بصيد الاسماك من بقاع
كان ينشأها .

ومضت على تلك الحال اسابيع والرجل لا يستطيع أن يقترب من السفين
لانه كان يتوهم أن هذه السفينة إنما سكنتها الجن وحطت فيها الشياطين . وهل
يعقل أن فتاة في مثل عمري تظل كل يوم تنظر الى هذا الصياد نظرات طويلة
حيرى من غير أن تنبس ببنت شفة أو تحرك لساناً بكلمة ؟ وهل يعقل أن تمش
امراً من غير أنيس يؤنسها أو رفيق يواسيها طوال تلك الايام فلا ترى الا
وحيدة بذاتها لم تفارق وجهها يوماً عبسات صارخة صامتة ، ولم تلمع في عينيها
يوماً اشعة الأمل ؟ وما هذا الهيكل الجسم الذي يمثل الحزن والاسى ؟ ومن
ذا الذي غرسه على ظهر هذه السفينة المحوطة بذلك اللعج العميق ؟

كنت أتوهم أن هذه هي الخواطر التي تجول في رأس ذلك الصياد الساذج ،
فكان يتحاشى الدنو من السفينة حذر أن يركب اليه سكانها ظهور الخيال فلا
يناله منهم الا الاذى والمس الشيطاني ولكن لا حظت بعد عدة أيام ان دائرة الجولة
التي كان يجولها ذلك الصياد كانت تقترب من افق الشمس  بعد يوم والدائرة
تضيق ثم تضيق آنأ بعد آن حتى بلغ في القرب منها مبلغاً أسمع فيه صوته
و يسمع صوتي فناديته في هدوء ، لا متعمدة اخفات صوتي ولا رفعة لاكثر
مما يجب ، وسألته عما لديه من الاسماك . وما كاد يسمع نبرات صوتي وما فيها من
رنين الحزن والاسى ، حتى أجاب بالنفي وادار قاربه الصغير الى الناحية المقابلة
للسفينة واعمل المجذاف في الماء . فمضى يشق عبابه بأسرع ما يصل اليه
جهد الخائف الفرع .

وظللت بين الأمل في اقتراب ذلك الصياد من سفينتي وبين اليأس من مساعدته
زماناً مللت فيه الحياة . وكنت اتظاهر أمام أخى وصاحبه بأنى خاضية بهذا
الاسر قانعة بما انا فيه من ذل واستعباد . وكيف تكون الدنيا على الصورة
التي صورتها اليه ! أتدرى ما جال بخاطري طوال تلك السويحات التي كنت
اقضيها ارقب ذلك الصياد ! كان يجول بخاطري أن اخذ ذلك الرجل بأسننهاض
اريحته اقرب من اخذه بالحيلة . فكم هممت بأن النفي بنفسى في الماء لعل

شجاعته تحمله على انقاذى . و لكن هل يعقل أن شخصاً لم يقو على مخاطبتي
يخطر بنفسه في سبيل نجاتى ! وماذا افعل يرقبائى في السفينة ! وكيف اخاص
منهم اذا خلصنى الصياد من الموت غرقاً !

و بعد بضعة ايام استطاع الصياد ان يقترب من السفينة ويكلمنى بضع كلمات
قصيرة سألتى فيها عن شأنى وعن السبب في وقوف هذه السفينة في هذا المكان
القفر المجرب بعيدة عن الشاطئ . بحيث لا يستطيع الاقتراب منها أحد من
الناس ، فاجبته اجوبة مبهمه ، لم استشف من محياها أنه خدع عنها بما اخفى من
حقيقة أمرى . فقال إنك لاتقولين الحق . الست ابنة الملك ؟ ان الناس يقولون
بانك ابنة الملك وانك قد خاوت شيطانا يزودك بعلم الغيب وما تخفى الصدور .
قلت لعلهم على حق . قال اذا كان هذا صحيحا فهل لك يا رسول العالم المجهول ان
تعرفينى أين ولدى ؟ اين حشاشة كبدى ؟ اين عبد الصمد ؟ خبرينى . انى فقدته
منذ عشر سنوات اذ تركنى ذات يوم ومضى مغضبا ولم يعد ثاليسه . اتوسل اليك
بكل ما هو عزيز في هذه الدنيا أن تخبرينى أين ولدى ؟

هنا فتح امامى باب الامل وواعدته على الغداة لاعرف من امر ولده ما لم
يعرف . وفي الموعد المضروب خبرته بان ولده لا يزال حيا وان فى استطاعتى أن
أحضره اليه عند شجرة الصفصاف القائمة على الشاطئ . الآخر قبيل سحر الليلة
القادمة . وتواعدنا على أن يحضر الى بقاربه فى ساعة متأخرة من الليل حتى اذا
أحضرت اليه ولده مضى ينتظرنى فى مكان على الشاطئ . تظلمه شجرة عتيقة من
اشجار التين الهندى ولعله ينتظرنى لأعود اليه بولده تحت تلك الشجرة حتى الساعة
وانى اختم اليك خطابى الآن وبجوارى من أحب يقرأ ما اكتب . أن عيناه
تدمعان بدموع الفرح ، وقلبه يتحقق كأن قطرة علقته عليه بجناحها .

هذه رواية فتاة تركها الحظ بين برائى اخوين أفسدتها مظاهر المدنية ،
وشيخ مخبول العقل استعبدته الشهوات . وهل فى مفاسد الدنيا من شىء لا يكون
نتيجة لاحدى قوتين . خلق فاسد أو شهوة قاسرة « سهام »

هذه واقعة أرويتها لعلها تكون لبعض الناس عظة ولغيرهم سلوى

نظام الافلاك

كما تصوره أهل المصور القديمة وفي القرون الوسطى

كان النظام الفلكي القديم يمثل الكون في كرات متراكزة الارض في وسطها. وهذه الفكرة قديمة جداً وهي مستمدة في الحقيقة من أهم ظاهرة مرئية في السماوات وهي ظاهرة دوران السماء في كل أربعة وعشرين ساعة من الشرق الى الغرب .

وكان ايودوكس Edoxus (٣٧٠ ق . م) هو أول من وضع نظام الكرات المتراكزة ليقرّب حقيقة هذه الدورة السماوية وليعلل بها بعض ما يظهر من الاختلافات التي ترى في دورة القمر والسيارات في اتجاه مختلف اتجاه الدورة السماوية .

وعلى الرغم من أن ايودوكس كان من كبار الرياضيين فإن نظام الكرات الذي تخيله لم يعبر عن حركات الاجرام الاتعبيراً جزئياً . والراجح ان هذا راجع الى الاكتفاء ببعض ملاحظات اولية في حركة السماء لم يستطع ان يعبر بها عن الحقيقة تعبيراً تاماً : رأتى من بعده كاليبوس — Kalippus فاصحح من نظام ايودوكس اصلاحاً كبيراً حتى قبله ارسطوطاليس وكان قبول المعلم الاول للنظام الكوني كما وضعه كاليبوس ذا خطر كبير فانه لم يقنع بان تكون الكرات عبارة عن تصورات رياضية فقط بل عمد الى القول انها اجسام طبيعة تدفعها على الحركة ارواح حالة فيها . ولولا أن قبل ارسطوطاليس هذه النظرية الكونية لاستطاع فلكيو مدرسة الاسكندرية أن ينقضوها . لاسيما وانها كانت تتضمن نقصاً كبيراً اذ قامت على تخيل أن السيارات لا بد من أن تكون على ابعاد متساوية من الارض التي هي كائنة في مركز النظام الكوني

أما خطأ هذه الفكرة فظاهر من اختلاف الاضواء المنبعثة عن السيارات والتي ترى بالعين المجردة كما هو بين في الزهرة والمشتري .

واقعد أدى البحث في الاختلاف الذي لم تستطع النظريات الاولى تعليله الى وضع نظام آخر عرف بالنظام البطلميوسي ، لان كلوديوس بطلميوس كان آخر من زاد اليه في القرن الثاني بعد الميلاد . ولقد فرض بطلميوس أن السيارات إنما

يدرن على دوائر مرا كرها تدور على دوائر أكبر منها. وفي وسط هـ هـ الدوائر تقع الأرض . ولقد أضاف بطليموس الى هذا النظام بعض تفاصيل ليبر بها عن بعض الاختلافات التي صادفته في درس نظام السماوات . ولقد رضى بهذا الرياضيون . غير أن غيرهم من الباحثين لم يرضوا بهذه التعديلات ورفضوا هذه الفروض ، بل فرضوا وجرد كرة صغيرة علقت على سطحها السيارات (كما ترى في الشكل الاول) الذي اثبتناه هنا توضيحاً للفكرة الأصلية ، وبين دائرتين متراكبتين تثبت بينهما الكرة الأصلية اخذت السيارات تدور في أفلاكها ، وفي وسط هذه الدوائر تقع الأرض . ولقد كتب بطليموس في هذا متناصفاً عرف عند العرب باسم المجسطي . ولقد جرى العرب على هذه الطريقة حتى أن اخوان الصفا في رسائلهم المعروفة قد ذكروا الدوائر والكرة على النظام البطليموسي حتى قالوا بان هنالك تسع كرة يختلف سمكها ملبسة احداها داخل الأخرى . وأن الكرة الثامنة هي التي تحمل النجوم الثوابت . وقالوا بان سرعة الكرات في الدوران تزداد بنسبة قربها من الأرض حتى اذا انتهينا الى القمر وجدناه يدور حول الأرض في اربعة وعشرون ساعة وخمسين دقيقة

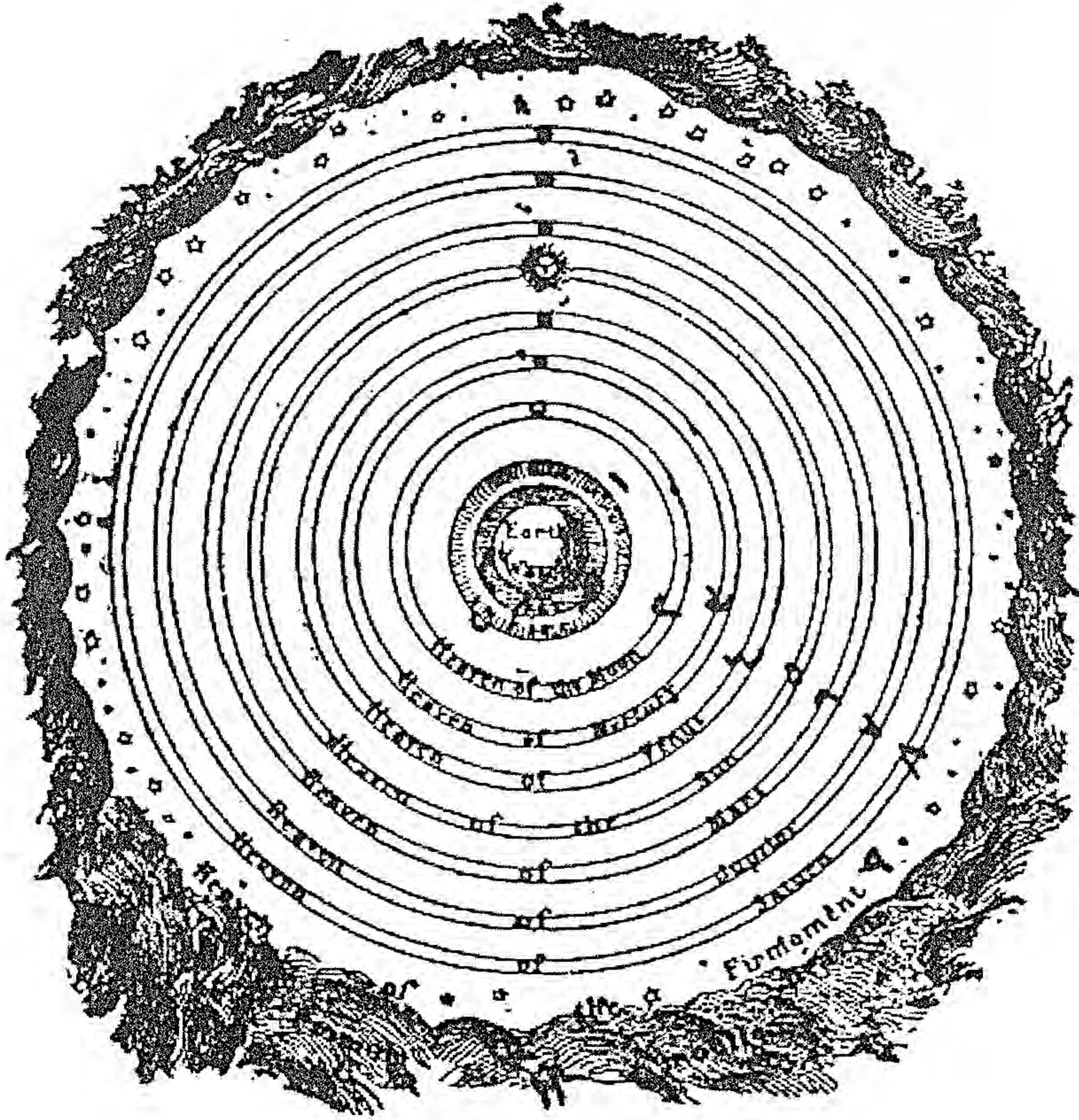
ولقد أشار أفلاطون الى فكرة ان الاجرام كلها تدور من الشرق الى الغرب اكثر من مرة فآخذت أقواله هذه ادلة تعززها هذه النظرية . ولكن دورة السيارات الى الشرق لم يعملها أحد من علماء اليونان . وكذلك انتقلت الى العرب وظلت بينهم كما كانت بين اليونان حتى أئمنت فلسفة ارسطوطاليس في اسبانيا خلال القرن الثاني عشر الميلادي ، وهناك قام من فلكي العرب من حاول أن يصلح اخطاء بطليموس ولكنهم لم يستطيعوا أن يدركوا حقيقة حركة السيارات . وفي أوائل القرن الثالث عشر بدأت العلوم والفلسفة كما عرفها العرب تعبر جبال البرنيز من جنوب فرنسا الى الشمال ، فانتقلت معها كتابات ارسطوطاليس التي نقلها العرب الى لغتهم ، ثم نقلت اذ ذاك عن العربية الى اللاتينية . ولقد استطاع ارسطوطاليس من طريق العرب ان يبسط نفوذه على أهل اللاتينية كما بسطه من قبل على أهل العربية ، فاعتبر بينهم انه المعلم الاول الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد علم في الفلك نظرية الكرة

المترا كزة . فكيف يستطيع أحد من أتباعه على أن ينقض له رأياً، أو يخالف له تعليماً ؟ ولقد كان القرن الثالث عشر ميداناً للجلاد بين زعماء النظرية التي أخذها العرب عن بطليموس وبين الذين رفضوا فكرة الكرات المتراكزة ، على قاعدة أن هذه النظرية لا تعلل النظام الكوني بنفس الدقة التي يعملها به نظام بطليموس ، ورجح هؤلاء المعركة في فرنسا حوالي سنة ١٣٠٠ من التاريخ الميلادي غير أن العلم في إيطاليا لم يتقدم مطلقاً خلال ذلك العهد . فإن كتاب بطليموس (المجسطي) على الرغم من أن جيراردو الكريموني كان قد ترجمه سنة ١١٧٥ م إلى اللاتينية فإنه كان غير معروف هنالك ، ولم يستعمل في المدارس إلا كتاب مختصر صغير الحجم ترجم عن الفرغاني أحد فلكيي العرب .

ولقد انتقل هذا النظام عن طريق الآباء إلى الكنيسة وثبتت تعاليمه في صميم اللاهوت النصراني في القرون الوسطى ومن حول هذا النظام الخيالي قامت المعركة الحامية بين كوبرنيكوس وغاليليو من ناحية وبين رؤوس الكنيسة من ناحية أخرى في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر وكان معتقد أهل الكنيسة كما صور في آخر القرن الخامس عشر هو أن الأرض كرة واقعة في وسط النظام الكوني وبمحيط بها عدة أفلاك كروية شفافة تديرها الملائكة حول محورها ومن حول الأرض ، وكل منها يحوى جرمًا أو أكثر من أجرام السماء . فالأقرب فلك الأرض ويحمل القمر ، ومن بعده فلك عطارد ثم فلك الزهرة ثم فلك الشمس ، ثم الثلاثة التي تلي هذه وهي فلك المريخ وفلك المشتري وفلك زحل . والفلك الثامن يحوى النجوم الثوابت والتاسع هو فلك المحرك الأول ويحوى الكل الفلك المباشر ، أو فلك عليين ، وهذا غير متحرك ، وهو الحد الفاصل بين الخلق الكوني المنظور وبين الخلاء الخارجي اللامتناهي . وهنالك في ضوء يخطف البصر ولا يستطيع أحد الدنو منه ، يستوى الله في وحدته الثالوثية فوق العرش حيث ترتفع إليه موسيقى الأفلاك اذ هي تتحرك . وعلى هذا نجد أن الفكرة الوثنية في حقيقة الأفلاك قد انقلبت إلى فكرة مسيحية ، منبثة في تضاعيف الدين النصراني .

وقد اثبتنا في هذه المقالة شكلان تفسيران . فالشكل الاول يمثل النظام الكوني حسب الاى القديم فالدائرة (١) فيها الارض (م) ماء (هـ) هواء (ن) نار (٢)

لك القمر (٣) فلك عطارد (٤) فلك الزهرة (٥) فلك الشمس (٦) فلك المريخ
 (٧) فلك المشترى (٨) فلك زحل (٩) الجلد (١٠) السماوات البلورية (١١) المحرك
 لاول (١٢) موطن السعداء المرضى عنهم .

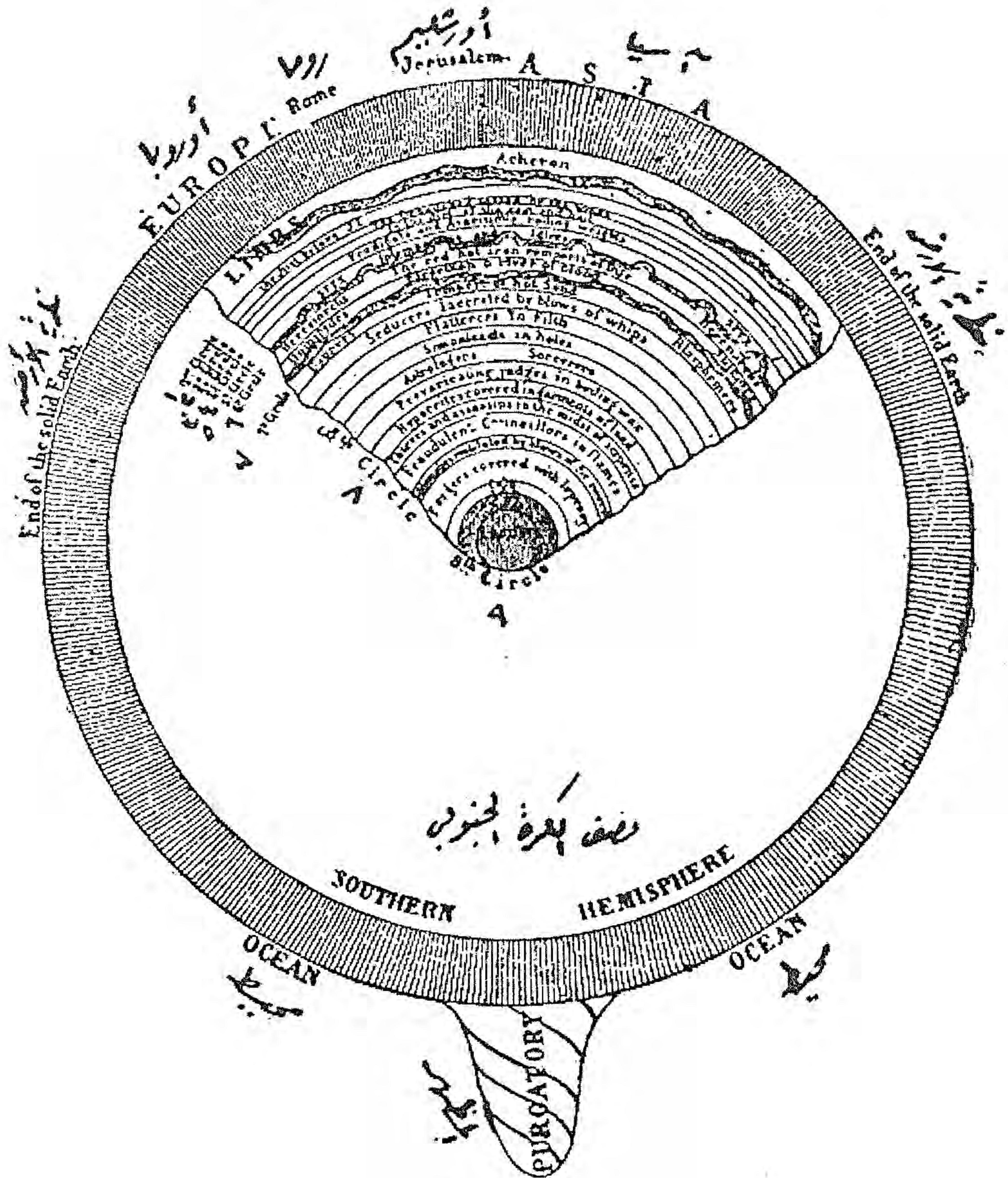


(ش ١)

وهنا ترى الارض في وسط النظام الكونى حسب المعتقد القديم والقمر
 معدود من السيارات وكذلك الشمس وهو النظام المنسوب إلى بطليموس ، وقد
 ورثه عنه العرب وترجموا له كتاب المجسطي المعروف للآن ، وعنهم أخذ أهل
 أوربا وظل معتمد أهل العلم والدين حتى نقضه كوبرنيكوس وعاوناه في ذلك
 غاليليو في أوائل القرن السابع عشر الميلادي .

والشكل الثاني يمثل كرة الارض . والقسم البارز منها فوق سطح المحيط هو
 الجزء الشمالي . لان امريكا لم تكن قد استكشفت وكان المظنون ان الكرة عامة في
 المحيط من الماء وان الجزء البارز هو المعمور منها . ولهذا القسم نهايتان من الشرق
 والغرب وآسيا تقع في الشرق وأوروبا في الغرب ومدينة روما منحرفة نحو الغرب
 وأورشليم في الوسط لانها المدينة المقدسة . ونهر اشيرون وهو نهر من أنهار

جهنم يبتدىء من طرف الأرض الغربي ويمضي الى جوفها نحو الشرق ماراً تحت



(ش ٢)

سطحها الظاهر . ثم منازل جهنم من بعد ذلك غائصة في باطن الأرض وهي تسع منازل (الاولى) بها الميزان امام المسيح (والثانية) ينزلها الفجرة والفاسقون تلفحهم الرياح العاتية (والثالثة) ينزلها الذين يرمون في الاوساخ والبرد الغزير (والرابعة) ينزلها مكثرو الاموال والمبدورون يحملون الاثقال الشديدة (والخامسة) فيها نهر «ستيكس» وهو في الميثولوجيا القديمة نهر في العالم السفلي تعبثه ارواح الموتى . وفيها ينزل الكسالى والاراذل (والسادسة) ينزلها كبار الهراطقة بين حواجز من الحديد المحمي تصدهم عن باب الرحمة (والسابعة) فيها

بهر فلاجيلون وهو في الميثولوجيا القديمة نهر من الدماء وعليها تهب زوابع من
 الرمال الحامية وينزلها السفاحون والزباويون والمنتحرون والخونة والمارقون
 (الثامنة) ينزلها الزانون حيث تمزق أجسامهم الشياطين والغاؤون يرمون في
 الاقدار، والمتجرون بالدين يلقون في حفر ضيقة، ثم المنجمون والسحرة، ثم
 القضاة المتحيزون يصهرون في دهن تغلى مراحله، ثم المنافقون وتراهم يلبسون
 ثياباً من الرصاص، ثم اللصوص والقتلة في وسط الاقاعي، ثم نصحاء السوء بين
 اللسن النيران، ثم الخارجون على الكنيسة تمزقهم ضربات السيوف، ثم المزيفون
 يعلوهم البرص والجذام (والثاسعة) وهي عبارة عن جليد شديد البرودة وينزل
 في اولها قابيل ثم من بعده يهوذا الاسخريوطي، ثم في الوسط إبليس، حيث يكون
 مركز كرة الارض. ثم نصف الكرة الجنوبي ويبرز منه ما يسمى عند
 اللاهوتيين «المطهر» وهو الذي يتطهر فيه الناس من ادران الحياة فاذا تطهروا ذهبوا
 الى الجنة فوراً، وقد كان استكشاف فكرة المطهر في القرون الوسطى مصدراً
 أدر على الكنيسة اموالاً طائلة، حتى سمي في بعض الكتب بمنجم الكنيسة الذي
 لا ينفد. وهكذا ترى ان العلم قد هدم العقائد التي وضعها اللاهوتيون. ولكن
 الفكرة في الدين هي التي بقيت ثابتة على الرغم مما اصاب مدارس الدين المختلفة
 من الضربات التي لو سد بعضها لغيره من النظم الى جماعية المحي في الوجود محواً تاماً



سياسة التعليم

اعتقد وأنا شارع في الدفاع عن فكرة وجوب حصر اهتمامنا في الوقت الحاضر لنشر التعليم العالي ، مع الاغضاء مؤقتا عن البذل لنشر التعليم الاول لمحاربة الأمية ، أنني غير مبتكر بل ادافع عن رأى أقلية أراه صوابا ، فأريد الحث عليه .

وعلى الرغم من أن فكرة التعميم الاولى فكرة جميلة فالسؤال الواجب الاجابة عليه هو هل الفائدة التى تعود على البلاد من محاربة الأمية تعادل المال الذى تنفق فيه أم ان الفائدة المنتظرة تنحصر في توجيه اهتمامنا الى التعليم العالي ؟

القصد من التعليم الاول هو نشر مبادئ القراءة والكتابة والحساب والحقيقة ان الدول المتقدمة قد اتبعت هذه الوسيلة ولكن كجزء من سياسة لا ككل مستقل فكل دولة سياسة ترمى الى ايجاد حركة تربية أهلية تعمل فيها المحاضرات والنشرات والمدارس الليلية والمحاضرات المتنقلة ومدارس المراسلة جنبا الى جنب مع نشر التعليم الالزامى . وبذلك يتيسر لمن يتخرج من المدرسة الالزامية أن يجد مادة لتغذية عقله ومجالا للتقدم الفكرى فهل هذا من الممكنات عندنا حيث يزهد المتعلمون في تعليم أوليا في العمل الشريف لانه وضع ؟

نحن في حاجة الى اشخاص يصبح في مقدورهم ادارة حركة تربية أهلية وتغذية عقول العامة بكل جديد في قالب بسيط . اذ ما الفائدة من تلقين المصطفى مبادئ القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ثم تركه وشأنه . وهل يستفيد من ذلك الا قراءة الاخبار ومكاتبه المعارف ومسك حسابه الشخصى ؟ حقيقة ان شيئا خيرا من لا شيء ولكن هذا يكلفنا كثيرا والمصلح دائما يبحث عن الافيد

اذا افقنا الفنا من الجنيهاات على تعليم شخص علوم الطب نفعل كما لو كنا فتحنا مستشفى . أضف الى ذلك أن على هذا الشخص أن يسعى لاجل معاشه فهو يواصل من يلتجئ اليه من جهة ويدأب من جهة أخرى للاعلان عن عمله واقناع الغير بموائده من أجل الكسب . ثم أنه سينزوج وسيؤثر في رفع مستوى بيته كما يؤثر في الوسط الذى يعيش فيه . واذا ولد له أولاد فسيبذل همه لتعليمهم تعليما راقيا

ويهدبهم تهذيباً حسناً، فنكون كأننا خلقنا بهذه الالف من الجنهات جرثومة لها استعداد للتكاثر وتلقيح ماحولها بلقاح الرقي والمدنية. وما قلناه عن الطبيب يصح قوله عن المهندس وعن الأديب وعن التاجر وعن الزارع أولئك الذين إذا تكاثروا عددهم، وعلى حد قول البعض، وضائق سبل العيش في وجوههم، قبلوا القيام بأعمال صغيرة، فيرتفع مستوى الأعمال لأن وظائف مكتبة المصالح وحلالي الصحة والمأذونين سيشغلها متخرجو مدارس الحقوق والطب والقضاء الشرعي. هذا إذا ما شينا مخالفينا في اعتقادهم أن نظامنا الاجتماعي سيظل على ما هو عليه ولا يتحول. وهذا غير معقول لأن المنتظر هو أن يكون لكل قرية طبيبها بمستشفاه ووكيل اشغال يبرم حاجاتها القانونية ومهندسا للاهتمام بتوزيع ما يخصها من الماء ويمهد الطرق ويشيد الدور. وفيها الزراعي الاخصائي وغير ذلك كما هي الحال في المراكز الراقية في امريكا واوروبا

وحتى على فرض أن سبل الرزق ستضيق امام المتعلمين فسيسمعون لفتح أبواب العمل ويتوسلون الى ذلك بكل الطرق. وهكذا تنشأ معاهد يحاول اصحابها ترويحها باظهار فضائلها للناس وحتى لو لم يكن القصد منها الخدمة العامة فإن للصالح العام نصيبا كبيرا منها. عندئذ فقط يكون الجو صالحا لانشاء حركة تعليم الزامي يكون القائمون بها أرقى بكثير من الذين نعمل على حشرهم حشرا بدون مميزات يصح الاعتماد عليها لتحمل مسألة نشر ثقافة اهلية

ولو أمكن نشر التعليم الاولى دون محاولة لسد الطريق أمام نشر التعليم العالي أو عرقلة سيره السريع فلامانع من تشجيعه لمحاربة الامية. ولكن لا يصح أن نمنع عن البلد طبيا أو مهندسا أو أديبا ونفق الالف من الجنهات التي يجب تخصيصها لايجاده لتعليم ثلاثين نفسا مبادئ القراءة والكتابة والحساب لان مستوى حياة هؤلاء الثلاثين لن يكون أرقى من مستوى بقية أهل القرية. وأفرض جدلا انني مخطئ، في ظني هذا، وافترض أن يكون هناك فرق فهو يكاد أن لا يشمر به. فوالحالة هذه لا يكون تأثير هؤلاء على الوسط محسوسا وربما كانوا هم انفسهم غير مستفيدين منه

ان فكرة نشر التعليم الاولى من الكليات التي تسمى اليها الامم التي جرت شوطا بعيدا في التعليم فاعتمدت على المتعلمين من ابناءها وعلى من تراءى لها وجوب

الاعتماد عليهم لإدارة تعليم عال جنباً إلى جنب مع ما هو لازم لنشر ثقافة راقية وطنية يصح أن تسير بالتعليم الأولى اعتماداً على جهود الأمة. ولكن في هذا البلد قد نحتاج الحال إلى إنشاء إدارة للإصلاح الاجتماعي. هما الإشراف والتنظيم. والمهم في الموضوع هو عدم مس ما يمكن تخصيصه من أموال الضرائب للتعليم العالي وما أقصده هو وجوب التفريق بين عمل وزارة المعارف وهو نشر التعليم العالي وبين جهود الأمة والهيئات الأخرى التي لا بأس من قيامها لمحاربة الأمية بإرشاد إدارة الإصلاح الاجتماعي. ثم هناك أيضاً برنامج المدارس وكأنه لا يريد أن يتحول بمرور الزمن فهو على ما كان عليه منذ وضع. فيجب تحويله ليناسب الزمن الحاضر والحالة التي نرمى للوصول إليها. وأني أفتتح أن يكون التعليم ابتدائياً وعالياً وأن يقسم التعليم التقني كذلك إلى قسمين قسم يدرس لمن أنهوا التعليم الابتدائي وآخر للذين أنهوا التعليم العالي. وأرى أن تكون مدة التعليم الابتدائي أربع سنوات وستين للتعليم العالي خمس. ويشترط في من يقبل في المدارس الابتدائية أن يكون قادراً على القراءة والكتابة بوضوح وأن يعرف قواعد الحساب الأربعة

وهذا برنامج أود عرضه لاجل بحثه

التعليم الابتدائي

السنة	عربي	انكليزي	عربي	هندية	انشاء	علوم طبيعية	علوم اجتماعية	تاريخ	جغرافيا	فنون	زراعة	صناعة	سكافة	ملاحظات
الأولى	٦	٦	٦	٦	٦			٣	٣	١	٢			٢٧ نصف السنة ١
	٦	٦	٦	٦	٦			٣	٣	١	٢			٢٧ « ٢
الثانية	٣	٣	٣		٦			٣	٣	١	٢			٢٥ ١ « ١
	٣	٣	٣		٦			٣	٣	١	٢			٢٥ « ٢
الثالثة	٢	٦	٣	١		٣	٣	٣		١	٢			٢٥ ١ « ١
	٢	٦	٣	١		٣	٣	٣		١	٢			٢٥ « ٢
الرابعة	١	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣		١	٢			٢٤ ١ « ١
	١	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣		١	٢			٢٤ ٢

الحصة للسنتين الاولى والثانية ٤٥ دقيقة

» الثالثة والرابعة ٥٠ »

اخترت اللغة الانكليزية لانها لسان امتين من أكبر أمم الارض وينتظر أن تزيد نتائج قرائتهما عما تنتجه أمة الالمان أو الفرنسيين أو الطليان بمفردها اللغات عبارة عن قراءة كتب قيمة مفيدة في مواضع عمرانية مع التمرن على الانشاء بكتابة مواضيع أو بملخصها . اما الترجمة فمن ضمن اللغات الاجنبية ولا تكون علما قائما بذاته

الفنون الجميلة ويدخل تحتها الموسيقى والغناء والتصوير ولذلك خصص لدرس مبادئ الرسم حصة واحدة في السنة الثانية وبعدها يترك الامر لموهبة التلميذ الفنية

التاريخ والجغرافيا تخصص السنة الاولى للمحلى منهما والثانية للعام . أما السنة الثالثة فيؤخذ فيها التاريخ القديم بتوسع والسنة الرابعة تاريخ العصور الوسطى بتوسع

المقصود من العلوم الطبيعية اعطاء فكرة في المواليد الثلاثة والمقارنة بينهما وكذلك بعض آراء عن الكيمياء والطبيعة والفلك بطريقة سهلة جدا أما العلوم الاجتماعية فعبارة عن معلومات عامة بواسطة محاضرات وخطب

التعليم العالي

السنة	عربي	انكليزي	فرنساوي	اللاتني	هندسه	مفاهيم	تاريخ	اجتماع	اقتصاد	منطق	فلسفه	نبات	حيوان	طبقات ارضيه	طبيعيه	كيميائيه	فلك	شبه
الاولى	١	١	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	١	٢١
	١	١	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	١	٢١
الثانيه	١	١	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	١	٢١
	١	١	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	١	٢١
الثالثه	١	١	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٢	٢١
	١	١	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣		٢١

الرابعة

الخامسة

يترك للطالب اختيار ما يريد مما يلي بشرط أن لا يقل عمله عن ١٨ ساعة أسبوعيا (سنة علوم لكل ٣ ساعات) في السنة الواحدة من المواضيع الآتية وذلك بالتفصيل مع وجوب عدم حصر الدرس في موضوع واحد

(١) الاجتماعيات وفروعها

اقتصاد. التاريخ. علوم سياسية. قانون. تربية

(٢) اللغات وفروعها

ادبيات. ما يحسنه منها أو الاستزادة مما لا يتقنه أو درس ما يجمله من الحديث

منها والتقديم

(٣) الطبيعيات وفروعها

الكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان وطبقات الأرض والهندسة وعلم الحياة

وما يتفرع من كل منها بتفصيل كاف

(٤) الرياضيات العالية

وبطبيعة الحال نحتاج لتنفيذ هذا البروجرام إلى جامعات يكون مقر أحدها

الاسكندرية والآخرى طنطا والثالثة الزقازيق واثنان بالاقصى في مصر والسادسة

في بنى سويف والسابعة في أسيوط والثامنة في قنا. ويقوم النظام الذى بسطة

على كلية العلوم والآداب في كل جامعة ويضاف إلى جامعات اسكندرية ومصر وأسيوط

كلية الطب ولغيرها كليات ومدارس أخرى. وأنى اضع البرنامج الذى نراه في

الصفحة التالية لأعطاء فكرة عنها.

ويلاحظ في توزيع المدارس والمعاهد أن تكون بعضها فنية ابتدائية

يدخلها الطلاب والطالبات بعد انتهاء الدروس الابتدائية في كلية الآداب والعلوم.

أما بقية المدارس فيدخلها خريجو القسم العالى بعد انتهاء السنة الثالثة كما وأنهم

يدخلوا أيضا جميع الكليات غير كلية الآداب والعلوم

نثر وشعر

تقدم النثر في هذا العصر الحديث لا ينكره إلا كل مكابر ، و جهود الشعر لا ينفيه إلا كل جاحد . فالنثر قد تقدم وتقدمه محسوس . والشعر ظل جامداً و جهوده باد للعيان ، و لكن إن تقدم النثر فما الفضل للنثر ، وإن تقرر الشعر فما القصور من الشعر . كلا ، فلتقدم النثر لأسباب وجيهة كما أن لتقهقر الشعر أسباباً أخرى ، ليست أقل وجاهة . .

إن النثر هو آلة هذه النهضة الحديثة ولسانها الناطق في كل ساعة وفي كل يوم وفي كل لحظة وبرهة ومن شأنه أن لا يزيد هذا الترويض إلا انقياداً وفي باب البيان إلا تقدماً .

فهو لسان الفيلسوف ، كما هو لسان المصلح ، والواعظ والمنشئ ، والكاتب والخطيب والسياسي ، والممثل ، وإن طريقاً تطرقة كل يوم أقدام هؤلاء العابرين ، من شأنه أن يمهد مهماً بلغ من الوعورة ومهما بلغت أرضه من الخشونة .

فالنثر إن تقدم فهناك أسباب ضرورية مهدت له هذا التقدم ودفعته إليه ، والنثر إن لم يكن إلا الصحافة آلة تستعين به على الإبانة لكفاه بذلك مروضاً يخفف من صعوبة مراسه ويسلس من قياده ، فالنثر وهو لسان الصحافة الناطقة في كل صباح و مساء من شأنه أن يتقدم ومن شأنه أن يلين ويسير مع النهضة جنباً لجنب .

أما الشعر وهو ذلك السبيل المهجور الذي لا يطرقه إلا القليلون فمن شأنه أن تظل أرضه غير معبده وطريقه غير ممهودة مهماً كثرت نسبياً أقدام العابرين فيها . فسبيل النثر مطروق وسبيل الشعر ليس مطروق . أو تقول بعبارة أخرى إن سبيل النثر مطروق كل يوم وعابروه كثيرون أو سبيل الشعر غير مطروق إلا نادراً وعابروه هم الأقلية ، ومن هنا لو كانت طريق الشعر مطروقا بمقدار طريق النثر لما ألفت الشعر إلا سائراً مع النثر جنباً لجنب وإن كان من ذنب لهذا التأخر والجهود في الشعر ، فالذنب ليس للشعر بل للأسباب التي أدت إلى القصور عن طرق بابه وقلة والجهل .

وانى لأعجب كيف بلغت الجرأة عند بعد الباحثين حتى يذيعوا امراً ما كان احراهم ان يترشوا قبل اذاعته قليلاً ، ويرجعوا الى بصيرتهم عسى أن يجدوا فيها نوراً ينير لهم سبيل الهداية ويستنكفون عن اذاعة شئ لا يمكن أن يقره الواقع ، أو يؤيده الاستنباط أو المنطق الصحيح .

فانا لا نستطيع أن اصدق أن الشعر كان رفيق الانسان قبل أن يولد النثر ولا نستطيع أن أسلم بمثل هذه النظريات التي لا يقوم عليها من دليل مادي يؤيد صحتها بما ينفي الريب ويبعد الشك

لا يكفي ما علمته عن أمة ، أو ما قرأته في تاريخ ما ، لان اجعل نظرتى هذه منها جاد ادعو الى الاعتقاد بأنه لا بد أن تكون قد سارت عليه كل أمة ناطقة وكل مجتمع له لسان ؟

كيف يمكن أن يكون الشعر قد سبق النثر وأنه كان للانسان في البيان عن أغراضه رفيقا ، على ما فيه من قيود ، وعلى ما هو مختص به من عراقيل لا يمكن أن يتغلب عليها إلا ذوو المواهب العليا ؟

انى لا أستطيع أن اقر هؤلاء الباحثين ومنهم الدكتور طه حسين على أن الشعر قد سبق النثر فالشعر لا تعرفه أمة إلا بعد أن تكون قد قطعت من النثر سبيلا وبلغت فيه شأواً ما حتى تتمكن من أن تضرب فيه بسهم صائب .

أما ان تذهب وتتخذ لك أمة اليونان دليلاً على قولك أن الامة العربية من شأنها أن تكون قد عرفت الشعر قبل النثر فهذا لعمرى دليل مع الفارق لا يزيد كفة ميزان ولا يتعلق به الا الذى لم يجدر هاناً مادياً فلجأ الى مقولات عقلية ينقصها القياس الصحيح .

وبقليل من الاستقراء نستطيع أن نفهم مما نقل اليها من مخلفات الشعر بكثرة و من ندرة مخلفات النثر ، أن العرب كانوا حريصين على رواية الشعر لانه كان فى نظرهم أقصى درجة بلغوها فى عالم البيان ، بعد كفاح طويل فى عالم التبيين ، وأما عدم مغالاتهم فى رواية النثر بمقدار اهتمامهم برواية الشعر فليس الا دليلاً ناصحاً على أنهم عالجوه حتى بلغوا منه أقصى ما يبالغ من اجادة وحتى عدت عندهم أقصى درجة بلغوها فيه من الابانة شيئاً مبتدلاً لا يستحق الرواية والحفظ والادخار

وبقليل من الروية اذن نستطيع ان نفهم مما نقل اليها من مخلفات الشعر انه كان في نظر السالطين أقصى مجهود أدرك و ليس بأقدم سبيل طرق . و لكن انى لكاترتنا أن يتوصلوا الى ذلك وهم في شذشتهم وشكهم يتخبطون وبعد . فانا الآن نستطيع أن نقول إن الشعر ثمرة مجهود طويل وانه لا يمكن بحال من الاحوال ان يكون أقدم من النثر

و الذى نستنتجه من هذا هو ان النثر رافق الانسان من قبل أن يرافقه الشعر ، وان النثر مازال اسلس منه قياداً وأهون سبيلاً . .

فالشعر مهما انصاع لا يمكن بحال من الاحوال ان يجارى النثر فى سلاسته أو فى طواعيته . فهو سيظل قمة لا يبلغها الاوهوب قدر له أن يعلو ذروتها . فان كنا نبقى من مجهودنا الادبى أن نصل الى درجة يكون فيها بلوغ هذه القمة في مستطاع كل راغب فيها ، فما نحن لنعلى بهذا للشعر مناراً ، وما نحن بحامين له ذماراً ، ولواردنا هذا بالفعل لنذهب بمجهودنا ادراج الرياح

ولا نقصد بهذا اننا لانستطيع أن نخضع آلهة الشعر الى سنة التطور ما دام انه لم يبلغ منزلته الا بعد أن خضع ازمانا طويلة الى هذه السنة .

فالشعر يمكن ان يخضع لهذه السنة ، و يمكننا أن ندفعه من درجة الجمود التى لا يزال يتعثر فيها الى درجة تليها وان نفتش عن الحائل الذى يصده عن التقدم ويقف به دون التطور .

ونو رجعنا الى النثر لوجدنا أن الوسيلة التى اقالته من عثرته هي تلك التى انتشلته من أصفاد السجع وقيوده ، و ان لنا من هذه الوسيلة خير مشجع بعد ان وصلنا بالنثر الى درجة من الرقى محدودة ، على تكسير أصفاد الشعر التى تحول بينه وبين التطور ، وما كانت اصفارها الا القافية . فلننشل هذا المعبود المحبوب من أصفاد كبلناه بها ، فظل ازمانا طويلة مستعبداً لا يستطيع حراكاً . .

وان يوماً نكسرفيه هذه الاصفاد وننتشل فيه هذا المعبود من وهدته التى تردى فيها طوال الازمان هو ذلك اليوم الذى نرجو بعده أن يدر علينا من بركته ويحبونا من فيض خيراته . وان شاعراً مهما بلغت شاعريته من السمو ليترف بأن القافية طالما أوقفت بينه وبين جيد البيان حائلاً ، وطالما صدته عن أظهار فيض الالهام . لانها مازالت عشرة فى سبيل الاجادة وسدادون البيان ! !

فكم من معنى بليغ اراد الظهور فلم تفسح له القافية مجالا ، وكم من وحي
جال في الخيلة فاندرته أن دون خروجه بابا موصداً ؟

وكم من مرة وقف الشاعر المفلق عند حدودها يحرق الارم غيظاً وحنقاً .
وكم من مرة صارعها الشاعر فتغلبت عليه ، وكم من مرة أراد أن يثب
عليها فتكفأ على عقبه ملوماً مدحوراً ثور في العزيمة و ضعف في الاقدام ؟

فان كنا نروم اصلاحاً ونطلب نهوضاً ونغار على الفن ونقدس الشعر فليحمل
كل قدير منا ممولاً يهدم به أسواراً وفأساً يكسر به اصفاداً .

وان يوماً تتفق فيه على سبيل يؤدي الى الخلاص من قيود القافية هو ذلك
اليوم الذي يعد أول يوم نسير فيه بالشعر في مضمار التطور والرقى . وقد نجد
من يندب القافية كما وجدنا من قبل من ندب على السجع . غير ان النتيجة
الحسنة التي ادركناها في النثر بعد الخروج به من قيود السجع ، هي خير
مشجع يحدو بالمجددين ان يعرضوا عن عويل الناديين ولا يعيروا تهويل
الجامدين التفاتاً .

وكما ان التؤدة هي من شروط التطور فلتكن هذه شعار الذين يتوقون
الى الهدم ويحسون البناء ، فليقدم الى العمل المنتج محبو الاصلاح فالثرثرة
والمجون والعبت اشياء لا تمجدي في مضمار العمل نفعا .

« توفيق حلبي »

عكا



الانتحار كمؤثر اجتماعي

مراجعات عن الاستاذ شرتون هيل

٣ - اذا رجعنا الى منارات احصائية نتناول فيها نسبة وقائع الانتحار ونسبة وقائع الجنون في بلدان مختلفة ، وصلنا الى نتائج مشابهة للنتائج التي وصلنا لها من قبل (١)

وقد وضعنا في الجدول الآتي ترتيب البلدان حسب انتشار ظاهرة الجنون في كل منها . غير اننا نجد أن نسبة حوادث الجنون في كل منها لا يتناسب مطلقاً مع عدد حوادث الانتحار . فيلاد زويج ، وقد اختصت بابها اكثر البلدان التي ذكرناها خضوعاً لظاهرة الجنون ، تشغل المكانة الرابعة بين البلدان في ظاهرة الانتحار : واليك البيان

مقارنة النسب بين بلدان مختلفة في ظاهرتي الجنون والانتحار

الملكة	عدد المصابين بالجنون في كل ١٠٠٠٠	عدد المنتحرين في كل ١٠٠٠	مركز المملكة نسبياً في نسبة الجنون في نسبة الانتحار	٤
نرويج	(١٨٥٥) ١٨٥	١٠٧ (١٨٥٦ - ٥٥)	١	٤
سكوتلاندا	(١٨٥٥) ١٦٤	٣٤ (١٨٥٦ - ٦٠)	٢	٨
دنمارك	(١٨٤٧) ١٢٥	٢٥٨ (١٨٤٦ - ٥٠)	٣	١
هنوفر	(١٨٥٦) ١٠٣	١٣ (١٨٥٦ - ٦٠)	٤	٩
فرنسا	(١٨٥٦) ٩٩	١٠٠ (١٨٥١ - ٥٥)	٥	٥
بلجيكا	(١٨٥٨) ٩٢	٥٠ (١٨٥٥ - ٦٠)	٦	٧
فوتمبرج	(١٨٥٣) ٩٢	١٠٨ (١٨٢٦ - ٦٠)	٧	٣
ساكسوني	(١٨٦١) ٦٧	٢٤٥ (١٨٤٦ - ٦٠)	٨	٢
بافاريا	(١٨٥٨) ٥٧	٧٣ (١٨٤٦ - ٥٦)	٩	٦

فاذا نظرنا في هذا الجدول وجدنا أن بلاد الدانمارك وساكسوني ، موطن الانحار ومبأته التاريخية ، وقد شغلت المنزلتين الاولى والثانية بين ممالك

(١) نشرت الابحاث الاولى من هذا الموضوع من عدي العصور اشهر نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٢٧

أوروبا في الاختصاص بظاهرة الانتحار ، أما تشغلان المنزلين الثالثة والثامنة في ظاهرة الجنون . ونرى من جهة أخرى أن بلاد نرويج واسكوتلاندا ، وقد شغلنا المنزلين الأولى والثانية في نسبة الجنون ، قد شغلنا في الانتحار المنزلين الرابعة والثامنة . والحقيقة أن منزلة اسكوتلاندا وساكوني تتبادلان النسبة مقلوبة في الظاهرتين على النمط الآتي :

المنزلة في الجنون	المنزلة في الانتحار	
٨	٢	اسكوتلاندا
٢	٨	ساكوني

لهذا وجب أن نحذر كل الحذر من أن نتبع أثر شيء في تلك المشابهات التي تقع بين الاسباب التي تحتكم في الجنون ، والاسباب التي تحتكم في الانتحار . فليس الامر محصوراً في أن النساء ، وهن أكثر تعرضاً للجنون ، أقل نزعة الى الانتحار من الرجال ، بل أن الممالك التي يظهر الاحصاء أن نسبة الجنون فيها أكثر من غيرها ، هي بذاتها التي اظهرت الاحصاءات أن نسبة الانتحار فيها أقل من غيرها والعكس بالعكس .

ومع كل هذا فقد يعترض المعترضون بقولهم إن ظاهرة الانتحار إنما ترجع الى الوراثة . وقد يتفق أن تقع على حالات كثيرة يظهر فيها أن اسراً ما قد يتفشى فيها الانتحار وكأنه راجع الى ثبات صفة فزيولوجية ثابتاً وراثياً . والحقيقة أننا كثيراً ما تقع على حالات يظهر فيها الانتحار لالحالة من الحالات الثابتة في صفات الاسرة خلال عدد متتابع من الاجيال المتعاقبة لاغير ، بل إنه يظهر بين افراد الاسرة في دور مخصوص من العمر . فلقد ذكر « مورو » Moreau العالم الفرنسي المشهور ، أسرة انتحار رجالها خلال جيلين أو ثلاثة أجيال متتالية عندما كانوا يبلغون دوراً مخصوصاً من العمر ، ولم تخطيء القاعدة في حادثة واحدة . وذكر اسكيرول Esquirol أسرة أخرى انتحار فيها ثلاثة اخوة على التوالي . وذكر مورو مثلاً آخر لاسرة انتحار من اعضائها ثلاثة اخوة وعم شقيق . غير أننا مع هذا لا يجب أن نفعل من أن كل الامثال التي ضربت

في اسر قيل بان فيها نزعة وراثية الى الانتحار قد ذكرها علماء من المشتغلين بعلاج الامراض العقلية في حالات وقع الافراد فيها فريسة للجنون . ولا ينبغي لنا أن ننقل بجانب هذا عن أن الجنون هو المرض الوحيد الذي يغلب أن يكون فيه من الخصائص ما يجعله ذا صفات وراثية تظهر في الاعقاب . ويحق لنا على هذا أن نقول بكثير من اليقين ان الحالات التي رواها الاختصاصيون في الانحراف العقلي انما هي حالات جنون لا ريب فيها . وعلى هذا تكون النزعة الى الانتحار والتي تظهر موروثه في اسرة من الاسر هي لدى الواقع صورة خاصة من صور الجنون وانها نتيجة لحالات يخلقها عقل فيه انحراف جنوني . وعلى الجملة نقول بان الجنون قد ينقل الى الاعقاب بالوراثة وأن هذا ليس له من علاقة بالانتحار باعتباره انحرافا جنونيا . وان الجنون اذا ظهر بصورة واحدة خلال أجيال متعاقبة فانه انما يرجع الى حالات خارجية تقع اتفاقا (١)

ومن الجائز أن يفرض الباحث على أن ينظر في المحاكاة - « التقليد » - باعتبارها عاملا ذا أثر في احداث الانتحار . ولا مشاحة في أن الانتحار لا يبعد أن يكون ظاهرة معدية . فان التاريخ الذي يروى عن خمسة عشر من جنود فرنسا المسنين الذين انتحروا سنة ١٧٧٢ بان شنق كل واحد منهم نفسه بعد الآخر في حبل علق في هلب واحد في فناء الانتفاليدي في باريس ، لحالة جليلة قد نستشهد بها على ما ذكرناه . ولما تكررت حوادث الانتحار شنقا في هذا الهلب فكر احدهم في نزع . ومنذ نزع لم تقم حادثة انتحار واحدة في ذلك المكان . وهذا يدلنا دلالة واضحة على أن الانتحار لم يكن تعيينا هو العامل المعدى ، فان من الجلي ان هناك عوامل أخرى ، اهمها الاستعداد لقبول وحي الفكرة - suggestibili - قد فعلت فعلها واظهرت نتائجها . والدليل

(١) ان نظرية الجنون الجزئي - المونومانيا Monomania التي قال انصارها بان الفرد قد يكون مجنونا في ناحية ويكون عاقلا في بقية نواحيه العقلية فقد تنقضت تماما الآن ، فان الفكرة في أن العقل مقسم الى كفايات منفصلة ، مستقلة قد تنقصها الآن ما استكشفت حديثا من الحقائق في التكوين الخمي والحياة الروحية

على هذا أنه بمجرد رفع الهلب من مكانه ، قد اختفى معه العامل الموحى بفكرة الانتحار ، وانقطع تيار الموت الاختياري عن أن يجرف امامه اناساً غير الذين انتحروا ، وقضوا على حياتهم . وعلى هذا لا نستطيع أن نقول بان الخمسة عشر الدين انتحروا ، كان السبب في انتحارهم راجعاً الى فعل المحاكاة وحدها .

اما اذا أردنا أن نتدبر أهمية المحاكاة في الايجاء بفكرة الانتحار ، فان من الواجب علينا أن نحدد ظاهرة المحاكاة ذاتها . واطن اننا لانجد للمحاكاة تعريفاً أجود من تعريف مسيو دوركهيم اذ يقول :

« تحدث المحاكاة اذا كان لفعل ما سابقة مباشرة تماثل فعلاً شبيهاً بها ، قام به شخص آخر ، من غير أن يبذل المحاكي اى مجهود عقلي ، مجرداً أو ضمناً ، بحيث لا يؤثر في الصفة الذاتية التي يختص بها الفعل المكرر ، ولا يتدخل بين هذا التكرار وتنفيذ الفعل نفسه »

لهذا ترى أن مجرد الطاعة للقوانين والعادات والتقاليد ليست من المحاكاة في شيء . فان الفرد المتمدين ، على وجه العموم . إنما يطيع القوانين و التقاليد التي تفرضها الجماعة على الاعضاء التابعين لها ، من غير أن يكون لقوة حكمه الفردي أى أثر في احداث هذه الطاعة أو خلقها . فان الفرد يتحقق بطريق ما من أن عصيانه لقاعدة من القواعد المرعية لا بد من أن يحدث له متاعب شديدة لا قبل له بها . ولذا نراه يطيع القاعدة المفروضة ، لا لان شخصاً غيره قد أطاعها من قبله ، ولكن لان هذا الفعل بالذات قد نال مع الزمان مبررات اقربها الجماعة التي هو تابع لها . و سنرى فيما بعد أن مجموعة من القوانين أو القواعد التقليدية لا تحدث في الافراد أثرها المطلوب الا وكان من الضروري أن يسلم الخاضعون لها بأنها عادلة . فان الفرد المتمدين إنما هو كائن شاعر بوجوده الذاتي . والشعور بالذات نتاج مباشر او خلق خاص من مخلوقات الحالة الاجتماعية . ولهذا ينبغي أن يلعب دوراً ذا شأن كبير في الحياة الاجتماعية . وعلى هذا يترتب أن تكون الطاعة للقواعد التقليدية وللقوانين والعادات في جماعة كملت الفتها وتمت روابطها الاجتماعية ، وكانت الطاعة في افرادها ليست مجرد كلمات تتحرك بها اللسان بل تعميها القلوب ، تستلزم بدياً ان يكون هنالك فعل شعوري وعيني يقبلها ، وحكم فردي يوافق عليها .

وعلى هذا نقضى بأن أحداث فعل تفرضه الجماعة ليس، بناء على هذا، بتكرار ميكانيكى لذلك الفعل . لأن التكرار الميكانيكى ينهى وجود الشعور بمحدث الفعل نفسه . هذا فى حين أن المحاكاة ليست بأكثر فى تكرار ميكانيكى لفعل ما من غير أن يتدخل الحكم والتمييز الفردى بين تصوير الفعل الذى سيحدث وأحداثه فى الواقع . إنما المحاكاة تكرار لفعل ما من غير أن تتكون بواعث تسوق اليه، ولوجه التكرار خالصا فى كل شائبة ومن كل دافع . ومن الظاهر أيضا أن كلمة «محاكاة» Imitation لا يمكن أن تصرف على حالات العدوى الاجتماعية التى تحصر تحت القواعد الخاصة بمظاهر الجماهير النفسية . فان جمهورا من الافراد قد يتفق أن يجتمع فى مكان ما إما لغرض محصور محدد، وإما للأغراض أصلا . وهنا يتعين، تحت تأثير مانسميه تجاوزاً «العدوى الاجتماعية» ، على هذا الجمهور أن يأتى فعلا أو أفعالا لم تكن قد توقعها احد من الافراد الذين يكونون الجمهور . خذ مثلا الجمهور الذى اجتمع فى باريس سنة ١٩٠٦ فى ميدان سباق « لونشان » تحت تأثير الفكرة فى أن المسابقات قد دخل فيها الغش والخداع وان الرابحين كانوا يسرقون ، فاحرق مكان المراهنات . فان شيئا اشبه بالهزة الكهربائية قد يفشى الجمهور فى مثل هذه اللحظات . ولم يكن لدى أى فرد من الافراد الذين صعدوا الى زيارة ميدان سباق « لونشان » أية فكرة فى اقتحام مكان ما أو إحراق شيء ما . غير أن المسابقات كانت سيئة الادارة . وكان التهيج العصبى الذى استمكن من الذين فقدوا نقودهم فيها قد اتصل تياره الى الآخرين ، وكان كلما تملك هذا التيار عدداً أكبر من الناس ازدادت قوته بنسبة ذلك ، وأخذ ينمو تدرجا حتى أصبح انفعالا لا يمكن الاحتكام فيه . فان التغاير الكمي ، لا بد من أن يصحبه تغاير وصفي . غير اننا فى مثل هذه الحال لا نقع على أثر لتكرار أفعال أو أفكار ما .

إنما نحن فى مثل هذه الحال نقع على احتكاك متبادل بين الافراد الذين يكونون الجمهور ومن طريق هذا الاحتكاك يتجاذب عدد من الحركات المدركة بفضل تشابهها . ومن ثم تتفانى هذه الحركات المدركة بعد قليل من الزمان وتأخذ هذه الحالة فى التكرار مرات عديدة حتى يخلق من طريق تكرارها حالة ضامية مخالفة تمام المخالفة للحالة التى خلقتها العقلية الفردية بادية ذى بدء . ومن هنا

نقول بأن النتيجة تكون مخالفة تمام المخالفة لما يمكن أن ينتج من طريق المحاكاة. لأن المحاكاة باعتبارها تكراراً ميكانيكياً لفعل وقع من قبل ، لا يمكن أن تؤدي إلا الى تكرار افعال متشابهة .

غير انه قد يمترض علينا بأن المحاكاة تلعب دوراً ذا شأن في الاغراء على الانتحار، حتى ولو قصرنا معناها على التكرار الميكانيكي لفعل وقع من قبل . واني لا انكر أن للمحاكاة نصيباً من الاغراء على ارتكاب الانتحار في بعض حالات فردية . فمثلاً حالة الخمسة عشر جندياً المسنين الذين شنقوا انفسهم الواحد بعد الآخر في هلب . فان هذه حالة لا يمكننا أن ننكر انه من المحقق أن المثل الذي أعطاه أول منتحر منهم ، قد أثر في اخلاق تاليه المريضة ، تأثيراً دفعه على أن يتبع مثال الاول في الانتحار شنقاً في نفس المكانة وعلى ذات الطريقة . ولا بد من أن يكون وحي الفكرة ، كما قلنا من قبل ، قد فعل فعله في الثلاثة عشر الآخرين بما جعلهم ينتحرون . وقد نستطيع أن نذكر حالات اخرى كانت المحاكاة اكبر مؤثر فيها . غير أننا اذا أردنا أن نعرف تأثير المحاكاة في تحديد النسبة الاجتماعية في الانتحار ، فليس يكفي أن نعتمد على حالات فردية ، مهما كثرت وتعددت. بل يجب علينا أن نأخذ مجموع السكان في أمة من الأمم ، وأن ندرس الاقاليم التي هي أكثر عرضة من غيرها لظواهر المس الانتحاري ، وأن نرجع الى الاحصاءات لنعرف ما اذا كانت الاقاليم الموبوءة تؤثر بالعدوى في ما يجاورها من البقاع تأثيراً يكفي لازدياد عدد حوادث الانتحار فيها . كما انه من الواجب أن نتبع هذه الطريقة نفسها لا في بحث الاقاليم المتجاورة في مملكة واحدة ، بل في بحث الممالك المتجاورة لنعرف أثر هذه الحالات في عالم الاجتماع



العلم والآراء الحديثة

٢ - وقفنا في المقال السابق عند البحث في تحديد العلوم وخصوصا آراء العلماء واخصهم البروفسور ارثر طومسون الانجليزى « تحديد العلوم المختلفة »

لن يستطيع انسان أن يضع حدودا للتفكير الانسانى. الا انه من المفيد أن نعلم كما هو الواقع أن العلم كما نعرفه يمكن تحديده نسبيا وحصر مواضعه وذلك لجملة أسباب : -

أولا . كان العلم يطبق مبادئه ونظرياته على الاشياء المادية الملموسة أو كما يقول البروفسور طومسون - اننا لا نستطيع ان ننزع المخلوقات الحية من أوساطها التى تحيا فيها أو مما يحيط بها. الا اننا رغبة في مباحث علم الحياة مثلا يمكننا ان نتخيل حالة السمكة دون البحر الذى تحيا فيه والطيور دون الهواء الذى تطير فيه وان ذلك واجب لضرورة فهم حقيقة المسائل العلمية من كل وجهة . فمثلا حين ندرس الجسم فى علم الطبيعة لانهم الابحالة الجاذبية التى فيه ، مع انه فى الوقت نفسه خاضع لعوامل أخرى لا يستطيع التخلص منها بحال مثل المغناطيسية والكهربائية وغيرها : الا اننا نفعل ذلك رغبة منا فى تسهيل مباحثنا وعدم تشعب المسائل التى نرمى الى حلها »

أو بطريقة أخرى نقول إن العلم يعمل لغرض تحقيق بعض الظواهر بحالات خاصة بعد انتزاعها من غيرها فهى فى ذلك يسعى الى حصرها :

ثانيا . ان العلم يعمل خاضعا لبعض المبادئ والنظريات التى ليست واضحة وضوحا كافيا وليست فيها كل الدلالة على ما تحتويه وما ترمى اليه مما هو فى نفسه محل مباحث العلم ايضا . فمثلا كم من الاسرار قائم تحت الكلمات والاصطلاحات الكثيرة الاستعمال مثل الكائن العضوى Orgauiism « والوارثة » « والنشاط » « الجاذبية » « والمادة » « والتوافق » Affinity « والجمود » Inertia وغيرها . ومع اننا نعرف ان الطريقة التحليلية تتقدم سريعا جدا وان الكثير من

المشاكل غير المفهومة تقل شيئاً فشيئاً. الا ان هناك بعضاً منها لم يحل بعد
ثالثاً : وهناك تحديد آخر وهو خاص بالنتائج السببية Causal resuets
فمثلاً ان كرة البليارد حين تضرب الاخرى تصطدم بالثالثة وهذا بسبب القوة
الدافعة . وكذلك الشرارة تشعل البارود بسبب اطلاقها واندفاعها. وكذلك
ابرة الفنو غراف تدير اسطوانة الجرامفون وتحدث الاصوات الموسيقية .
الا أن في الحالة الاولى فقط السبب يسبق النتيجة. اما في الحالتين الآخريين
فالنتيجة تسبق السبب وفي غالب الاحوال نرى أن كل ما يقرره العلم هو « اذا
كان هذا - فيكون ذاك ! » وان ايضاحاته وشروحه عادة لا تكون الا
جزئية أو بسيطة

رابعاً . وأهم هذه التحديدات للعلوم تتعلق باصل الاشياء ذلك الذي قد
يظل سرا غير معروف

فمثلاً الباحثة في علم الحياة - البيولوجست - يبدأ بحثه في الاجسام
المعضوية. أما من أين أتت وكيف تكونت ؟ فهو لا يهتم به . وكذلك الكيميائي
يبدأ بحثه في العناصر الأولية - أما ما هو تاريخها ؟ فليس بمحل اهتمامه .
ولذلك تجد ان هناك دائماً حداً قبل بداية الاشياء التي منها يبدأ الباحث
المحقق السير في طريقه . وهذه التحديدات في المسائل الجزئية يجب أن نقف
عندها قبل البدء في مباحثنا العلمية وهي موجودة في الاصول الاساسية التي
قد تكون مجهولة في المبادئ والنظريات التي نستخدمها وأيضاً في صعوبة تعيين
حقيقة النتائج السببية الا في علم الكيمياء مثلاً وكذلك في ابهام وعدم وضوح
أصل الانواع والاشياء .

وهذه التحديدات وهذا الحصر يجب مراعاته بدقة في تفكيرنا وأغراضنا
ومباحثنا العلمية ليقول الوقوع في الاخطاء ولتقل أسباب سوء التفاهم بين
الكثير من الاشياء .

وهناك بجانب هذه التحديدات الاربعة حدوداً أخرى ولكن من نوع مباين لهذا.
أما سببها فخواصنا ومشاعرنا

وأكثر من ذلك يجب أن نعي في عقولنا دائماً ان المبادئ والقوانين العلمية
التي قد تظهر لمدة ما قوية لا تشمل النقص ، قد مرت بكثير من التطورات
والتغيرات تبعاً لتقدم العلم . وقد تمر بغيرها في المستقبل فمثلاً أن كبلر Kepler

قد حسن في نظرية « كوبرنيكس » Copernicus وقامت نظرية نيوتن Newton على كبر ويقول البعض أن النظرية إينشتاين Einstein في السببية قامت على آراء نيوتن وهكذا

فالعلم شبيه بالإنسان الضال في الصحراء يجد السراب أمامه دائماً وكلما خيل إليه أنه قد قرب منه كلما بعد عنه ذلك السراب بل إن اكتشافاً واحداً قديماً يعتبر كل ما تقدمه مثل اكتشاف عنصر الراديوم الذي لم يعرف العلم عنه شيئاً مطاقاً بل لم يشك حتى في إمكان وجوده قبل نهاية القرن التاسع عشر . بل إن رأياً جديداً أيضاً قد يغير كل شيء كما فعلت نظرية دارون في التطور

« العلم والشمور »

إن حياتنا شبيهة بالمثلث المتساوي الاضلاع فهي قائمة على ثلاث جوانب (١) العمل (٢) والشمور (٣) والمعرفة أو كما تقول الفلسفة القديمة قائمة على (١) اليد (٢) والقلب (٣) والرأس وكل منها باب إلى (١) عالم العمل - (٢) عالم الفن والموسيقى والتقاليد الدينية - والآداب (٣) إلى عالم التفكير بما فيه . والناس لحسن الحظ لهم طرق مختلفة في الحياة - (١) فمنهم من يهتم بالأعمال المادية كرجال الصناعة مثلاً - (٢) ومنهم من يهتم بالمشاعر كالشعراء والفنانون (٣) ومنهم رجال المعرفة الذين يريدون أن يعرفوا أسباب الأشياء وقوانينها - إلا أنه مما لا شك فيه أنهم قد عملوا على تغيير الحياة الإنسانية وجعلها تسير في طريق الحرية والتحرير

وفي الحقيقة إن الشهوات والرغبات الداخلية في الإنسان والمبادئ السامية هي التي تدفعه إلى العمل - كما إن مشاعره وعواطفه هي التي تدفعه إلى الفن - وكما إن عقله يحفز به إلى الاجتهاد والوصول إلى غايات العلم .

وكل هذه العوامل هي ظواهر طبيعية ضرورية لتحسين الروح الإنسانية . وأنه لمن الخطأ أن تصطدم ببعضها كما أن من الخطأ إيجاد الخلافات بينها . بل الواجب الاستفادة من كل من هذه العوامل الثلاث بما تحققه وما تأتي به من الآراء !!

في الواقع إن العلم ليس بعاطفي ولا ذاتي كما سبق أن تحدثنا وإن طرقه التحليلية في تحقيقاتها المادية تظهر كأنها معارضة للتحليلات الشعرية الخيالية . إلا أنه يجب الصبر والجلد الكثير على تقبل وفهم أن خيال الشعراء لا يتعارض مع

مبادئ العلماء. لأننا قد نصل بواسطة الأول الى الثاني. ولأن سرورنا من المناظر الطبيعية بما فيها من روعة وجمال لا يقل عن سرورنا بمبادئ علم الجيولوجيا مثلاً وتحقيقاته. فكلاهما طريقان الى فهم الحقيقة الخالدة ! بل بالعكس ان واجب العلم هو ان يعمل على توسيع وايضاح الفن والجمال في الحياة. لان في العالم بعض المسائل التي لا يمكن أن يحلها العلم وحده والتي تعمل على تقدم المجتمع ونضوج وارتقاء العقل الانساني. لذلك كان التعارض بين العلم والشعور كما يقول البروفسور «طومسون سببه سوء تفاهم بسيط وليس خلافاً حقيقياً

العلم والدين

ان العلم يحاول ويعمل مع اكتشاف قوانين الوجود المادية وتقريرها ببسط الطرق. وهي إما نتائج مباشرة لبعض التجارب أو غير مباشرة لها. واما الدين فهو يسير الى اعتقاد — عملي وعاطفي وعقلي — بنظام علوي لحقيقة لا يمكن الوصول اليها بالتجارب الحسية. فهو يرى عالماً غير منظور يلتقي النور على مشاكل الحياة الدنيا. ولغته ليست اللغة العلمية بل هما مختلفتان لأن مبادئ الدين خياليه ومبادئ العلم عملية اختباريه ولأن عرض الدين هو التفسير بخلاف العلم ففرضه الوصف. ولذلك لا نقول انها متناقضان، وانما نقول انها غير متناسبين. لان كلاهما يعمل في وجهة مختلفة عن الاخرى اختلافاً تاماً

العلم والفلسفة

إن نظرة الفلسفة الى الاشياء نظرة عامة شاملة. او هي كما يقول البرفسور طومسون ان «الفلسفة هي التفكير الاستنتاجي لمجموع المبادئ التي تقررها تجاربنا واختبارنا» واذن كان العلم والفلسفة مقاس لبعضهما. والفلسفة في نظر رجال العلم البحت هي السبيل لمعرفة الحدود التي يقف عندها عمل كل منهم والاقتراحات التي يبدأون منها تجاربهم. وهي توفر عليهم سهولة نقد وفهم نظرياتهم ومن وجهة أخرى ان واجب الفلسفة الحديثة هي أن تعنى بكل النتائج التي تصل اليها التحقيقات العلمية. واذن فيجب أن تتقبل كل طريقة

تفسيرية وافية منها بجميع الآثار مثل النتائج العلمية لنظرية التطور أو الوراثة وكذلك ليس للفلسفة أى حق في أن تقرر الوسائل التي يريد العلم أن يتبعها وإنما واجبها وعملها هو أن توجد التناسب والتوافق بين النتائج العلمية وبين غيرها مما يظهر أثناء التجارب العملية أو الأخلاقية أو الفنية أو الدينية . لأنها تبدأ عملها في الواقع حين تقف التجارب والملاحظات العلمية .

ولكن ذلك ليس معناه أن الفلسفة تستخدم في بنائها المواد التي يأتي بها العلم كما هي وإنما بعد أن يمررها تنقد الفلسفي وما يحيط به . وهكذا فنحن لا نتقبل النتائج الأخيرة التي وصل إليها العلم في دراسة موضوع الوراثة مثلاً كما هي ونعدها مسألة محتومة . وكذلك فيما يختص بموضوع سلوك الحيوانات وتصرفاتها لا نتقبلها من أحد جوانب المسألة فقط فنقرر أن العقل هو الذي يحكمها وإنما هنا يكون عمل الفلسفة فيما يختص بنقد هذه النظرية جميعاً وتقريبها إلى بعضها والحكم عليها مما لا يعمله رجاله لأنهم يهتمون فقط بمباحثهم التي اقتصوا بها

وعلى هذا الأساس لا يصح أن نهمل فكرة اتصال الجسم بالروح على شكل ما تبعنا لأن مباحثنا الكيميائية لم تصل بعد إلى فهم هذه الحالة . لأن الجواب على مثل هذا يدفعنا إلى اغلاق باب ما وراء الطبيعة أو الفلسفة العالية التي تنظر إلى العالم كجموع وإلى الإنسان كفرد

وفي الوقت نفسه أن الفلسفة حين تأخذ في مبادئها عن علم الحياة فكرة التطور العضوى وأن الحاضر وليد الماضي وأب للمستقبل فهي في الوقت نفسه تستشف النظرية من أساسها وترى أنها ليست بالمسألة السهلة وهي تقرر ضمناً كل ما أثبتته هذه النظرية عن التطورات الماضية . لأنه ولو أن نظرية التطور نظرية ثابتة إلا أن تحقيق العوامل والأسباب ما يزال صغيراً يحتاج إلى دعائم وذلك عمل الفلسفة

العلم والحياة

أن أول غرض للعلم هو الفهم وإنما المعرفة هي القوة الحقيقية في العالم لأنه كما قال سيكون

« أن نهاية ما نرى إليه في الحياة هو معرفة الأسباب والعوامل السرية في الأشياء — وتوسيع حدود مملكة الإنسان بالانتفاع بكل ما هو ممكن »

وفي الواقع ان ذلك هو ما يعمل له العلم. لان كل العلوم بما فيها الرياضة تبدأ من التجارب المادية للمسائل العملية وان أكثر التحقيقات النظرية اوجدت الفوارق الكبيرة في حياة الانسان العادية اليوم خلافاً للمشاكل التي حلها العلم أو التي اكتشفت اثناءه — فمثلاً التلغراف اللاسلكي والليفون وعنصر الراديوم — والطيارات — واشعة اكس — والتحلال الضوء كل هذه المسائل انما ظهرت أثناء المباحث العلمية الجافة

كانوا يقولون فيما مضى ان زياده المعلومات انما هي زيادة في الآلآم وانما اليوم قد تغيرت هذه الفكرة تماماً واصبحت الثقة فقط تابعة لمباحث العلم وتحقيقاته. كما ابان عنها هربرت سبنسر : —

« العلم للحياة وليست الحياة للعلم »

وكما قال اوجست كومت : —

« المعرفة هي بعد النظر — وبعد النظر هو القوة ! »

وكما قال بيكون : —

« ان غاية العلم هي كشف واظهار كنوز الخليفة وتحرير مملكة الانسان »
وفعلاً قد بدأت تتوجه فكرة العلماء الى ذلك وتطورت الآراء الحديثه تريد من العلم ان ينير كل مشا كل الحياة الانسانيه وان يبحث في نتيجة الانسان كما يبحث في عقله وجسمه — وان يشتغل بنظريات التعليم والتربية كما يشتغل بمسائل الزراعة — وبمسائل الاخلاق مثل عنايته بالمسائل الاقتصادية واستعمال المعادن .

فهناك في الحياة الكثيرة من المشا كل التي لم تحل بعد والتي يكون من ورائها تقدم الانسانيه ورفاهية الانسان مادياً وأديباً في امواله كما في صحته وقواه لو توجهت جهود العلماء في مدى الزمن الى تحقيقها . وان آمالنا في المستقبل كبيرة . لان تطور الأفكار الحديثه من وجهة نظرها الى العلم كفيته بتحقيق تلك الآمال ما

بشار بن برد

-٢-

تناولت بالوصف والتحليل في فصل قبل هذا عصر بشار بن برد وكيف كان بشار صورة صادقة لعصره الذي عاش فيه ، وكيف ان ما وصل اليينا من شعر بشار على قلته يعبر أحسن تعبير عن النزعات التي قامت في ذلك العصر وعن الانفعالات التي جاشت بها المواطف الثائرة في صدور الرجال والنساء . ولم اشأ ان أتورط في الكلام في هذه الاشياء باستفاضة واسطراد متخذاً من كتب الادب أمثالا ومن مجالس العظماء والامراء أدلة على صدق ما ذهبت اليه حذر الاطالة في شئ يكاد يكون الشعور بصحته اسبق الى النفس من الادلة والبراهين التاريخية والعقلية . على أننا لا نريد بعد هذا أن نتورط في الوصف والشرح لا أكثر مما ادلينابه من قبل . لهذا تمضي في تحليل نفسية بشار بن برد لنخلص من هذا التحليل بفكرة في دلالة شعره على نفسيته المتوهجة الثائرة المشبوبة بتلك النيران العاطفية التي صبغت العصر الذي عاش فيه .

أعرف في العربية ثلاثة شعراء لشعرهم في اذن نغم وحده ولمعانيهم مرمى بذاته . بل يكادون يخرجون عن الحيز الذي شغله شعراء العربية الى حيز لم يلج به من قبلهم ولا بعدهم شاعر نطق بالضاد .

وليس هذا الحيز مقصورا على متانة في اللغة ولا سبك في الاسلوب ولا ترفع في المعاني ولا ما الى ذلك مما يتفوق به الشعراء في صناعة الشعر ، بل هو حيز العقلية الابداعية التي تنظر الى الحقائق كما هي حتى في الهجو والمديح والنفسية التي تنطبع عليها صور الزمان الذي تحفها نظمه الاجتماعية على اختلاف صورها وألوانها .

هؤلاء الشعراء الثلاثة هم مهار الديلمي وبشار بن برد وابن الرومي . وأولهم كان تلميذا للشريف الرضي وراوية له ، فانطبع بطابع التصوف والزهد حتى انك لتجد ذلك شديد الظهور في شعره بين الاثر في نزعتة الشعرية . وبشار بن برد عاش في عصر الخلاعة والفتنة فكان خليعا مفتونا بصور المدنية كما اقتبست

من العالم الروماني والفارسي وكلاهما تطوح في الحسيات حتى لقد بلغ منها أقصى المبالغ ، وابن الرومي كان عبداً اشترى بالمال فكان في أخلاقه عبداً ، وفي حياته عبداً ، وفي تصوراته عبداً ، رقيقاً ، على الرغم من جودة شعره وقوة بياضه وبالع وصفه .

و لعل السبب في هذا أنهم بعيدون عن العقلية العربية فكانوا نسيجاً وحدثهم في الشعر وفي الشاعرية . فان مهياراً وبشاراً كلاهما فارسي وابن الرومي بعيد عن الدم العربي بعد السماء عن الأرض . ولا خفاء في ان العقلية الفارسية عقلية تتمشى فيها أصول الآريين الذين غزوا الهند ودوخوا الممالك في العصور القديمة والذين لهم في الفلسفة جولات لم يشق غبارهم فيها احد ولهم في اللغة آثار لم يستطع الى الآن احد من أهل العربية أن ينال منها بما يسقط من قيمتها ويحط من قدرها . وهم فوق ذلك حسيون لا يؤمنون الا بالحس ، اثباتيون يحكمون العقل قبل المشاعر . حتى انك لو رجعت الى الاديان التي انتشرت فيهم لما رأيت في دين منها الا أثر الطبيعة متجلياً بارزاً كأن الذين وضعوا هذه الأديان لم يعبدوا في الواقع الا الطبيعة ، ولم يريدوا بما وضعوا من صور الدين الا أن يدمجوا الانسان في الطبيعة ادماجاً اساسه مثل يتخيل اليهم من طريق الدين ، ولكن ليرجع بهم الى الطبيعة سعياً .

خذ دين ماني بن قاتك ويسكاد يكون آخر الاديان ظهوراً في بلاد فارس قبل الاسلام . فلقد ظهر ماني في أيام سابور بن اردشير وقتله بهرام بن هرم بن سابور سنة ٢٧٧ للميلاد . ويقول العرب بانه اخذ ديناً بين الما جوسية والنصرانية وكان يقول بنبوة عيسى وينكر نبوة موسى : غير أن صاحب الفهرست يذكر ما هو أقرب من هذا الى حقيقة الدين الذي ظهر به ماني . فيذكر ان ماني « يزعم » بان العالم مصنوع من أصلين قديمين هما النور والظلمة وانهما ازليان سرمديان وأنه ما من شيء الا وهو من أصل قديم .

وفي ما قال صاحب الفهرست بعض الحقيقة لا الحقيقة كلها . والحقيقة ان دين ماني يقوم على اصلين الاول القدم المطلق والثاني تفاعل الاضداد أو تواترها . واني أرى ان استعمال تواتر الاضداد أرجح من استعمال التفاعل في معنى لم يرد به صاحب هذا الدين ما تؤدي اليه هذه الكلمة تماماً . فكل شيء عندهم قديم أزلي سرمدي . وأن الطبيعة كلها قائمة على اضداد تتواتر ولكن لا تفنى فهي

قديمة ايضاً . فكأن ماني لم يقل بان الاصل في العالم النور والظلمة . بل قام بان النور والظلمة من اظهر الاضداد التي تتواتر في الطبيعة تواتر غيرها من الاضداد من هنا يظهر أن ماني ابن فاثك لم يقصد بالدين الذي وضعه انه تفسير لحقائق ما بعد الطبيعة والغيب من طريق الدعوى ، بل قصد الى الطبيعة الخافة به يدمجها في الدين ليخلص من هذا بنتيجة هي أن يندمج الناس في الطبيعة اندماجاً اساساً المعتقد واليقين . وهذا بالذات ما تتخيله العقلية الآرية ، بل لا نبالغ اذا قلنا بان العقلية الآرية لا تنتج الا هذا . فهي عقلية تؤمن أولاً بالحواس ومن طريق الحواس تحاول الاندماج في الطبيعة

ولما استقر العقل الآري في أوروبا وغزاها الدين المسيحي وهو دين سامي بحت ، لم تلبث العقلية الأوروبية المتأصلة من الطبيعة الهندو جرمانية أن قلبت الدين السامي النازع الى الغيب وما بعد الطبيعة الى دين تتجلى فيه المحسوسات وتبرز مظهره آثارها في كل شيء . فلم يبق من دين المسيح عيسى بن مريم في أوروبا الا الاسم ولم تسمح العقلية الأوروبية لشيء من هذا الدين بأن يبقى ويعيش في جوها الا ما وافق طبيعتها . فبرز الدين النصراني بعد قليل في ثوب اندمجت فيه الطبيعة ، لا على نفس النمط الذي ادمجها به ماني بن فاثك ، بل على صورة اخرى استمدت من وحي الفكرة لا من وحي التواتر والامتداد . ولكن كل ذلك يتفق في النهاية . يتفق في أن العقل الآري نزاع الى الاندماج في الوسط الطبيعي اندماجاً تاماً . أما العقل السامي فعلى الضد من ذلك . فهو وهاج براق وثاب الى الغيبات متهافت على العلم بما لا يستطيع العقل الصرف أن يعلم منه شيئاً .

هذه العقلية بذاتها تتجلى في الفرق بين من ذكرنا من الشعراء وبين شعراء العرب الذين مجرى في عروقهم الدم السامي الصحيح ومنه يستمدون عقليتهم حتى لقد نجد أن أهل الأدب من الاعراب لم يستسيغوا الكثير من شعر مهيار وابن الرومي بل أن بشاراً لم يتواتر شعره بينهم الا لما كان فيه من توافق بين منازعه وبين تصورات أهل مصر الذي عاش فيه . ولولا هذا لانطوى بشار كما انطوى من قبله مهيار وابن الرومي ولم تعرفها الا بطون الدواوين والا الاقلون من الأدباء الذين احبت من عقولهم آثار العرب خلال بعض الأزمان .

على هذا نعتقد أن بشاراً من تلك الفئة التي جددت في أساليب الشعر العربي تجديداً لم يكن أساسه الخيال ولم يمد الى المقولات الصرفة يختصها باوصاف الذوات

الحية الكائنة ، بل عمد إلى الحقائق حتى في مديحه وهجائه ، ولم ينزع إلى تلك الاشياء الخيالية التي عكف عليها غيره من الشعراء الذين جرت في عروقهم الدماء السامية .

أما اذا وقعت في شعر بشار على شيء . قد يقال ان فيه نزعة إلى العرب فقد تستطيع أن ترجع فيه إلى سبب طبيعي . فان أمه عربية ومن المحقق أن يكون لذلك أثر في شعره وفي عقلية . غير أن الصفة الغالبة فيه هي الصفة الآرية . صفة الاحتكام إلى الحقائق الملموسة وإلى المحسوسات تستوحيها المعنى في قالب عربي مبين .



هو بشار بن برد بن رجوخ العقيلي بالولاء . وكان أبوه من فرس طخارستان وجيء به في سبي المهلب بن أبي صفرة . ووهبه المهلب إلى امرأة من بني عقيل فتزوجت به ونسب إليها وولدت منه بشاراً . وكان مولد شاعرنا بالبصرة حوالي سنة ٥٥ للهجرة ، الواقعة في سنتي (٦٧٤ - ٦٧٥ م) ونشأ بشار في بني عقيل مولعاً بالاختلاف إلى الأعراب الذين يحيمون بالبادية فشب على غرارهم فصاحة لسان ، وقوة بيان ، حتى عده البعض آخر من يستشهد بشعره من الشعراء في ضروب اللغة . ولقد ولد بشار مكفوف البصر فعاش ماعاش لا وسيلة له في المعرفة إلا الأذنين وكفى بهما مع صفاء الطبيعة وقوة الشاعرية على أن يخلقا من بشار شاعراً مجيداً ومجدداً هو أول المجددين من موالى الفرس الذين تتخبر العربية بهم وبآثارهم التي خلفوها . وخالد معانيهم الباقية على جذنها وان أخلق الزمان .

والروايات من حول بشار كثيرة والقصص متعددة وجوهة . على أن الرواية قد اتفقت على أنه قال الشعر وهو ابن سبع سنين . وأنه كان اميل إلى الهجاء منه إلى أي فن آخر من فنون الشعر . ولا جرم ان من تنزع نفسه إلى الشعر فتياً ويكون له من المواهب ما يستطيع أن يدلل من طريقها معاور اللغة ، يكون في مقدوره أن يبلغ من الشعر ما بلغ بشار بن برد في سني شبابه ، وظل عليه إلى أن مات .

لم يعرف العرب من ضروب النقد الأدبي الا ضربان . اولها المفاضلة ومن

التجاوزان ندعو هذا نقداً أدبياً . وثانيهما نقد المعاني والاتفاظ من طريق الاتساق واللغة . وهذا اول مدارج النقد . على هذا لا نستكف أن نقول ان العرب لم يعرفوا من النقد الا بدايات قد نأثم أن نقول في بعضها أنه نقد ، وقد تقبل مكرهين أن نقول في ما بقى منها انها نقد أدبي كما عرف في العصر الحديث على أننا نكاد نتخطى اليوم هذا الدور وان كانت آثاره لا تزال شديدة الفعل في الكثير مما تبرزه اقلام الكتاب والنقاد في عصرنا هذا . غير أننا وقد أزمعنا أن نتكلم في بشار وأن نعرض له برأى نحلل فيه نفسيته وشعره فإني أرى من الاوفق أن أورد رأى النقاد الذين تكلموا فيه من قبل لعلي استعين برأيهم على بلوغ شيء من الحق بنير لنا السبيل

قال الاستاذ الزيات في بشار انه .

(١) اول ماتكلم في الشعر الهجاء لان سوقه كانت نافقة (٢) وانه طرق أبواب الشعر التي فتحت قبله وزاد عليها (٣) وان الاتفاق بين رواة الشعر ونقدته على أنه رئيس طبقة المولدين (٤) وانه كان مجددا في المجون ورقة الغزل (٥) وانه جمع بين جزاله البدو ورقة الحضر (٦) وان شعره الحد الاوسط بين القديم والحديث (٧) وانه كامرئ القيس في الجاهليين ولست تقع في مجمل هذا على جديد يصح ان تركز اليه في نقد تتناول فيه بشارا على نمط حديث .

وقال الاستاذ العقاد وهو عندي من أكثر النقاد فهما لطبيعة بشار : ان شعر بشار يقسم الى قسمين (١) الاول بدوى تغلب فيه الجفوة وحضري تغلب فيه الرقة والنعومة . (٢) وانه اذا نظم في اغراض الشعر القديمة كان أقرب الى لغة الاعراب واذا نظم في الغزل والمجون كان أقرب الى اللغة المألوفة الشائعة التي « رقت حواشيها وسلست عباراتها » (٣) وان روح شعره تدل على الطبيعة الحيوية والمزاج الديوى الذي يتخيل الاشياء كما يحسها في عالم الواقع القريب (٤) فلا الهام في شعره ولا حنين ولا أشواق ولا بدوات ولا خيال . ولكنها تجربة الدنيا تملئ عليه ما ينظم من الحكمة والوصف والغزل (٥) وانه أصلح أدباء العرب لان تؤخذ عن شعره الشواهد الكثيرة على أساليب الطريقة الطبيعية الواقعية التي اشتهر بها بعض أدباء فرنسا على الخصوص في القرن الاخير .

وهذا الكلام كثيره حق واقع . على أن الاستاذ العقاد لو رجع الى تحليل عقلية بشار تحليلاً اثنو لوجياً لا استطاع أن يصيب كبد الحقيقة : على أنه مهما كان في تعليقه لطبيعة بشار من تمسح بالذنيويات ليعلل بذلك حقيقة عقليته الحسية ، فانه في ذلك إنما أورد عرض الشيء ليكون سبباً ، ولم يبلغ الى الجوهر الكامن في وراثته بشار الآرية عن اجداده الفرس . على أن هذا النقد من ابلغ ما وقعت عليه من صنوف النقد الحديث امعاناً في التعمق الى الاصول ، أو كما يقولون للعناصر الأولية ، التي يقوم عليها النقد التحليلي الصحيح

وقال الاستاذ طه حسين ان بشاراً (١) شاعر غزير المادة جداً (٢) وان الجيد في هذه المادة لم يكن صادقاً في شعره ولا مخلصاً . انما كان يتكلف المعاني في أكثر الاوقات ويتكلف الالفاظ والافصاف أيضاً (٣) وانه لم يكن محبباً ولا ليناً رقيق الطبع والحاشية ، وانما كان قويا جباراً مبغضاً (٤) وانك ان أردت أن تعرف الفن الذي برع فيه بشار فهو فن الهجاء وفي الحق أنه قتل الهجاء وأن الهجاء قتله أيضاً

وفي هذا القول من الدلائل ما يثبت لك أن الاستاذ طه حسين لم يفهم من نفسية بشار شيئاً ، ولا حلل من طبيعة بشار شيئاً ، فالقول بان بشاراً شاعر غزير المادة ليس بمجديد في نقد بشار ، وأما أنه يتكلف المعاني والالفاظ والافصاف فذلك بالقياس الى المحبين للاستاذ من الشعراء الساميين الذين لم يقف على الفرق بينهم وبين الشعراء الذين تجرى في عروقهم الدماء الآرية . وأما القول بانه قتل الهجاء فليس بصحيح لان شعر بشار لم يصلنا على تمامه وارسال الاحكام العامة بالاعتماد على الجزئيات لا يؤمن معه الزلل والخطأ والدليل المادى قوله بان بشاراً قتله الهجاء اولست أدري كيف أن الهجاء يقتل من قتل الهجاء ؟

وقال الاستاذ ضيف ان بشاراً (١) رأس المحدثين وأشعرهم (٢) وانه من الشعراء الذين أحدثوا انقلاباً في الاساليب الشعرية وقد أدرك الدولتين الاموية والعباسية (٣) وانه اشتهر بمخالفة الاسلوب القديم وحمل على العرب (٤) وأنه استخف بالعادات وبكثير من المسائل الدينية (٥) وأن له آراء رجعية في الدين (٦) وأنه من أشعر الشعراء وأكثريهم مجوناً وأقلهم مبالاة بما يقول ويفعل

وهذا النقد ان صح أن نسميه نقدا ليس الا مقررات لم يعلل أسبابها الاستاذ تحليلا صحيحا على الاسلوب العلمى الحديث . وكان فى استطاع أى ناقد فى القرن الاول أو الثانى من الهجرة أن يقول ما قال الاستاذ ضيف فى القرن العشرين .

والحقيقة أن كثيرا من الذين نقدوا بشارا وعلى الاخص الذين قالوا بان الهجاء أظهر مظاهره لم يستطيعوا أن يفهموا الشاعر فهما صحيحا . والذى أفهمه أن الهجو فى شعر بشار كان تبعا لنزعة أخرى ولم يكن صفة أساسية فى نفس بشار . بل ان الصفة الأساسية كانت الاباحة فهى التى دفعت به الى الهجاء وهى التى درجت به الى كل ما تقع عليه فى شعر بشار من مظاهر الخروج على المألوف . والسبب فى هذا أن العقلية الطبيعية الواقعية اذا حفت بها من الاسباب المدنية والعمرانية ما حفت ببشار فى أيام الدولة العباسية انقلبت أبيقورية صرفة ، على غرار تلك المفكرات التى احتكت فى العقل الرومانى فى أواخر أيام الامبراطورية الغربية . ومن هنا نشأ ما تجدد فى بشار من ميل للهجاء واطلاق كل الاشياء اطلاقا أهمى لاحد له ولا غاية

على أننا قد نتساءل قبل أن نمضى فى نقد بشار نقدا أدبيا تحليليا كيف يمكن أن نحكم فى بشار حكما صحيحا ولم يصل اليه من شعره الا القليل ؟ على أنى لأشك فى أن مجموعة ما وصل اليه من شعر بشار على قلته يزودنا بأقذع ما قيل فى الهجاء وأدق ما قيل فى الغزل وأحلى ما قيل فى الوصف ، وأمتع ما قيل فى التشبيب وأدق ما قيل فى المديح وأعظم ما قيل فى الفخر وأجدد ما قيل فيما يمكن التفريق به بين الاساليب القريبة من عهد النشأة الاسلامية وأول عصر التحضر العربى .

على انك اذا أردت أن ترى بشاراً فى حقيقته فانظر اليه فى اخلاقه فهى المرأة التى تريك بشاراً رجل حس صرف يتعلق بالديويات لان طبيعة عقله تنزع به الى الاندماج فى الطبيعة ، وكانت الحضارة التى قامت من حوله من أكثر الاشياء تحجيباً لا مثاله فى الدنيا . أفليس ادمانه الخمر وصبوته الى النساء وابتذاله وبعده عن العفة الا أثر من آثار الحضارة التى حفت به صادفت فيه نزعة ووقعت فيه على بيئة خصبة ؟ أما جنبه وخوفه من المقال والحسام فليس له من سبب الا اعتقاده بأن قول الحق لا يزول ، ولا ينسى وأن فيه من الدنيا ما لو قيل مرة

لجری مثلاً ، و یقینه ان الحیاة ثمینه لا تشتري بمال ولا تباع بشرف ولا بعزة .
ولعل فی هذا أثراً من نشأة وتربيته الاولى

روی بان بشاراً هجاً روحاً ، وهو شاعر أدرك الدولتين الأموية والعباسية
وكان من الفضلاء ومن الرواة الذين اکتروا من حفظ كلام العرب . وكان بین
بشار وروح مهاجاة فوصف بشار سيف روح بما يحط من قدره فاقسم اذا لقيه
ليضربه بالسيف ولو فی حضرة أمير المؤمنين . ففزع بشار وخاف وقام من
فوره الى المهدي يستجيره . فلما حضر روحاً قال انا عبد أمير المؤمنين أطيعه
فی كل شیء الا فی بشار فقد حلفت من اجله یمن غموس . فقال المهدي ومن أجل
بشار دعوتك . وجيء بالعلماء فافتوا بضربه بعرض السيف . فلما هوى علیه
روح بالسيف تألم وتأوه وتأوه النساء . واذا صبح هذا كان دلیل علی حبه للدنيا
وتفانيه فی الطبيعة التي لیست الحیاة الا اهم مظاهرها وأبلغ آیاتها .

كذلك تجدان بشاراً قد نزع طأفراً الى صفات آبائه المرة بعد المرة . وفي
هنا دلائل علی صفاته الآرية الرئيسة المنبثة فی تضاعيف فطرته . فقد سئل مرة بأی
شیء فقت أهل عصرک ؟ فاجاب علی هذا السؤال جواباً عبر فی الواقع من حقيقة
عقلیته تعبيراً لم یبلغ الیه فی شعره وفضح عناصر نفسه بما لا یمكن أن یبلغ الیه تعبير
فی وصف الطبيعة الحسية والعقلية الاثباتية فی أیما متجه فی اتجاهات الحیاة مشت
وفي ای مظهر ظهرت . اتعلم بماذا أجاب بشار ؟
قال :

« لم أقبل كل ما توردہ علی قریحتی (فما بالك بما توردہ علیہ قریحة غیره)
ویناجینی به طبعی ویبعثه فکری . ونظرت الى مغارس الفطن ومعادن الحقائق
ولطائف التشبیہات . فسرت الیها بفهم جید وغریزة قوية . فاحکمت سیرها .
وانتقیت خیرها . وكشفت من حقائقها واحترزت من متکلفها . والله ما ملک
قیادی قط الاعجاب بشیء مما آتی به »

وهذه المبادئ بذاتها اذا عم تطبیقها علی احتکام العقول فی حقائق الاشياء
كانت بذاتها حرية الفكر والنزوع الى الواقع المحسوس . وتلك صفة یختص
بها العقل الآری . والواقع اننا لا نستطیع أن نعرف بشاراً الا من هذه الطريق
فهی مفتاحه الذی لا یمكننا أن نعالج بغيره مستغرق تفسیره . اسماعیل مظهر

مآسى التاريخ

كيف قتل السلطان عثمان الثانى

السلطان عثمان الثانى هو السابع عشر من سلاطين آل عثمان. ارتقى العرش في ٢٦ فبراير سنة ١٦١٨ وعمره اذ ذاك أربع عشرة سنة بعد خلع عمه السلطان مصطفى. وكان قوى البنية مفتول المضلات ذا مهارة خارقة في استعمال الاسلحة يفالى كثيرا في الاعتزاز بقوته حتى كان يظن انه قادر على اخضاع شعب باسره وكان ذلك سببا في قتله شر قتله كما سنفصله بعد :

اعتلى العرش والبلاد تخوض عبايا من الفتن والثورات الداخلية والدولة مشتبكة في حرب مع ايران ومعرضة لحرب اخرى مع بولونيا. وكان تمرد جنود الانكشارية (جيش المشاة) والسباهي (جيش الفرسان) وخروجهم على النظام واستهانتهم بأوامر رؤسائهم قد بلغ درجة يخشى منها على كيان الدولة. فبعد أن كان هؤلاء الجنود مصدر قوة الدولة وعزها أصبحوا سبب سقوطها واضمحلالها. وبعد ان كانوا مثالا يحتذى في الطاعة والنظام وافتحام الاخطار أصبحوا ولا هم لهم الا اكتساب الاموال والتدخل في شئون الدولة وعزل الرؤساء و تمييزهم مما انتقص من قيمتهم الحربية وجعلهم ينهزمون امام جيوش ايران التي كان يقودها الهاء عباس العظيم

جاء عثمان في وسط هذه الظروف الحرجة فلم يسه له الا عقد للصلح مع الفرس وقبول بعض مطالبهم ولكنه حقد على الجيوش الانكشارية وصمم على التخلص منهم. وزاد الحقد وتلك الرغبة بعد أن رافقهم في حرب بولونيا واشترك معهم في ستة معارك نالت فيها تركيا بعض النصر ولكنه لم يكن نصرا حاسما وانتهت هذه الحرب بصلح شبه وقتي. وكان الجنود العثمانيون في هذه المماوك لا يحاربون الا طمعا في الغنائم ورغبة في العطايا والمنح التي كانت تعطى لهم من السلطان اذا أتوا بأسرى أو برؤوس قتلى من العدو ولكن عثماناً كان ضنينا عليهم

بالمال فلم تكن عطاياه تضارع من سبقه من السلاطين وكان يظهر اشمئزازه من سلوك الجند اثناء القتال ويوبخهم تارة ويؤنبهم أخرى فخذوا عليه واضمروا له الشر كما أنه صمم تصميمًا أكيدا على سحقهم واستبداهم بجنود أخرى من المصريين والعرب .

لم يكن الجنود فقط هم أعداء عثمان بل أنه كان قد اغضب أهل العاصمة حيث كان يعاقب بصرامة كل من وجده سكراناً أو مدخناً فكان يأمر بالقائه في البحر تارة وبالاشغال الشاقة في دور الصناعة تارة أخرى. وكان في كثير من الاحيان يطوف في المدينة متنكراً وينفذ هذه العقوبات بنفسه. واغضب كثيراً من رؤساء الدين والوزراء حيث جرد الاولين من كثير مما كان لهم من الامتيازات وكان لا يقرب من الآخرين الا من كان موصوفاً بالشدة والمهارة في جمع الاموال ولو كان منفوراً من الشعب . أغضب أهل بيته بأن قتل أخاه محمداً ظلماً اتباعاً لوسوسة باش اغا الحرم بالسراي . وقتل سرية والده لمكانتها في القصر

اشتركت الطبيعة أيضاً في تهيبه الاستياء العام من السلطان الشاب. ففي أثناء حكمه أمطرت السماء حجارة وجمدت مياه البوسفور وظهر مذنبان ناربان واشتد الفلاء وحصل حريق شديد في العاصمة حتى ظن الناس ان الله غير راض عن سلطانهم وان هذه شواظ غضبه يصبها عليهم بسببه.

رجع عثمان بعد حرب بولونيا في سنة ١٦٢١ والحال كما ذكرت استياء بين الجند واستياء في السراي واستياء في العاصمة ولكنه لم يبال بكل هذا واصدر أمراً بأعداد الاسطول واعداد قوة برية تبلغ خمسمائة جندي كي ترافقه في ذهابه الى الحجاز لقضاء فريضة الحج ولتأديب الامير فخر الدين الدرزي حاكم لبنان الذي كان قد انشق على الدولة واعلن استقلاله فلم تكذب تصدر الاوامر ويعلم عزم السلطان على السفر الى الحجاز حتى أخذ دعاة السوء ينسابون هنا وهناك ويرجون اشاعات مؤداها ان عثماناً لا يقصد الحجاز لقضاء الحج حقيقة وانما هو مسافر الى مصر والى سورية ليجند منها جيشاً بدل الانكشارية والسباهي ويقضى على هذين الصنفين . وبذل الصدر الاعظم والمفتي وغيره من الوزراء مجهوداً عظيماً كي يتحول الملك عن قصده حتى أن المفتي أصدر له فتوى يقول فيها أن السلطان لا يجب عليه الحج وان أوجب منه عليه أن يشرف على شؤون

الدولة ويصلح أمورها وانه يمكنه أن يتقرب الى الله ببناء مسجد أو غيره وحذر منجمو السراى الملك من السفر قائلين انهم حسبوا له طالعا فوجدوه مقرونا بالنحس لان زحل والمريخ قد اقترنا فى برج السرطان .

كل هذه المحاولات لم تنجح شيئا فى ارجاع السلطان عن عزمه وكان الخوجه مهر وباش اغا الحرم من المحبذين لهذا السفر فلما نقلت هذه الاخبار الى الجيش سار الانكشارية والسباهي وعقدوا اجتماعا فى ثكنة الانكشارية الجديدة ليتفاوضوا فيما يجب عمله لانقاذ انفسهم من الخطر الذى يهددهم . فقاموا أولا بمظاهرة فى سوق الجزارين (ات ميدانى) وكانت هذه اولى علام العصيان فى ذلك الوقت ثم سار المتظاهرون الى بيت الخوجه عمر فلما رأهم أقفل بيته وأشرف عليهم من النافذة فصاحوا به (انزل يا مولانا واحمل مطالبنا الى السلطان) فلم يجرؤ الخوجه على النزول لهم بل هرب من قصره متنكرا فاقترح المتظاهرون الدار واعملوا فيها نهباً وسلباً وكان قد حضر لهم شايوش من طرف الصدر الاعظم يدعوهم الى الطاعة فرجموه بالحجارة وكذلك رجموا كل من حثهم على الطاعة من قوادهم . وكانوا قد أرسلوا الى المفتى هذا السؤال (هل يجب شرعا قتل من يحرض السلطان على اختراع البدع وتبذير اموال المسلمين ؟) وكانوا يعنون بذلك من أشار على الخليفة بالسفر الى الحجاز فكان جواب المفتى (نعم يجب) وبعد أن نهب الثوار دار الخوجه توجهوا الى منزل الصدر الاعظم فقابلهم باطلاق النار فقتلوا وجرحوا بضعة أشخاص . فكان ذلك اول منبه للثوار الى خطئهم حيث حضروا بلا سلاح ولما كان الليل قد أقبل تواعدوا على أن يجتمعوا غدا مسلحين (١٩ مايو سنة ١٦٢٢)

وصلت أخبار الثورة الى عثمان فدعا العلماء وسأهم عن سبب ذلك وعما يجب عمله لتسكينها فاجابوا ان الجند غير راضين عن سفر جلالته وانهم يطلبون ابعاد الخوجه وباش اغا الحرم . فرد عليهم ان اذهبوا وقولوا له انى عدلت عن الحج ولكننى لا أريد ان أعزل الخوجه ولا الاغا . لم يقم العلماء بتنفيذ هذا الامر فى الحال كما كان يجب بل اجلوا الامر الى صباح الغد وفى تلك الليلة كثرت أشاعات السوء فتكهرب الجو وقامت العاصمة على قدم وساق وراجت

سوق المحرضين وتحفز ذوو المطامع والشهوات ودبت عقارب الفوضى ونشط
المضللون والافاكون فمن قائل ان عثماناً يعد حرسه للدفاع ومن قائل انه يسلم خدام
القصر ورجاله. فما جاء الصباح حتى كان الجيش يغلى غلى المرجل واجتمع الثوار أولاً
في جامع السلطان محمد الفاتح وبعثوا يدعون العلماء ليتفاهموا معهم فوعدوهم بالحضور
اليهم في ميدان السباق (آنى ميدان) فهرول الجند الى المحل المذكور صائحين:
الله الله. وهناك وجدوا اثني عشر من كبار العلماء فالتمسوا منهم فتوى بجواز قتل
الخوجة عمرواغا الحرم والصدر الأعظم ووزير المالية واثني عشر من كتاب السراى
وقدموا اليهم عريضة يطلبون فيها رؤوس هؤلاء الستة ليرفعوها الى السلطان.
فقال لهم العلماء اما الخوجة والاغا فنعلم غضبكم عليهما. وما ذنب الاربعة
الآخرين؟ فقالوا أما الصدر فقد اطلقت علينا النار من بيته واما وزير المالية فيدفع
لينا مرتباتنا من اردأ النقد. واما الاخيران فمن الذين يؤذوننا. فلم يسمع العلماء الا
ان يرفعوا هذه المطالب الى السلطان. فغضب غضباً شديداً وقال إني لا أوافق على
هذه المطالب الآثمة الجنائية. فلم يراجع العلماء بل اكتفوا بقولهم (يلزم اختيار
أخف الضررين) فقال لا تهتموا بذلك فما هؤلاء الا طغمة من الاسافل عديمة
التبصر ولا تلبث أن تتفرق. فحذروه من عاقبة هذه الثورة قائلين ان الجنود
متى اجتمعوا لا يرجعون حتى ينالوا مطالبهم بأيديهم وان اجداده كانوا
يحرصون كل الحرص في مثل هذه الظروف على اجابة رغباتهم. فعند
ذلك اشتد غيظ السلطان وصاح في وجوههم (انكم تتكلمون كما لو كنتم انتم
رجال الثورة) فلا قتلنكم انتم والعصاة فلم يثبت العلماء بينت شفة. وركع حسين
باشا الصدر الأعظم السابق على أقدام عثمان متوسلاً (مولاي اذا طلب الجند
رأسى فاعطها لهم ولا تفكر الا في سلامة نفسك) وكرر العلماء رجاءهم في ارضاء
الجند فلم يجبههم بشيء فتهيأوا للأصراف من السراى ولكنهم تلقوا امراً
بالانتظار. ولبت الثوار ينتظرون عودة العلماء برهة فلما البطؤوا تحقق لديهم ان
مطالبهم رفضت فزحمت جموعهم على القصر السلطاني مدججين بالسلاح ومن
لا سلاح له حمل قضيباً من الخشب أو وتداء فلم يلاقوا اية مقاومة أو صعوبة في
اقتحام ابواب السراى ودخول البهو الاول لان الحرس الخاص بعضهم انضم
الى الثوار وبعضهم ركن الى الفرار.

ظل الثوار ساعات طويلة في البهو الاول من القصر يصيحون باصوات عالية مطالبين برأس الخوجة وأغا الحرم والصدر. ولمالم يجدوا من جواب افتحموا البهو الثاني وأحاطوا بقاعات الديوان مرددين صياحهم وكان العلماء جالسين في هذا البهو امام باب البهو الثالث وهو ما يسمى بباب السعادة فلما رأهم الثوار سألوهم عما تم في شأن مطالبهم فأجابهم نقيب الاشراف بهذه الكلمة الآتية «ان كلامنا لم يسمع فاذهبوا وتكلموا بانفسكم» وإنما قلت كلمة آتية لأنها ادعى الى ان تكون تحريضاً من أن تكون تسكيناً فافتحم المهاجمون باب السعادة ودخلوا الى البهو الثالث وفي ذلك الوقت وقع أمر لا يمكن تحليل تأثيره في الظاهر ولكنه قد يكون في مثل هذه الحالة كافياً لاسقاط أعظم حكومة ودك^٣ أنخم عرش. أمر سرى في هذه الجماهير الصاخبة المتوترة الاعصاب فحولها عما قصدت اليه الى قصد آخر لم يكن مقرراً في بادئ الامر. ذلك الامر هو كلمة القيت بصوت عال من أعماق البهو الداخلي فكانت كسهم صوب الى صدر عثمان فأصاب منه مقتلاً تلك الكلمة هي (نريد السلطان مصطفى) فما سمعها الثائرون حتى تلقفوها ورددوها بحماس عظيم وهجموا على البهو الداخلي يبحثون عن هذا السلطان الذي كانوا قد خلموه من قبل لضعف عقله و حماقته وكان ممتقلاً في هذا القصر في غرفة قدرة ليس فيها من الاثاث الا فراش قديم يخدمه اثنان من المماليك. وطلق الجند ينتهكون حرمة غرفاتهم تطأها قدم أحدهم من قبل باحثين عن السلطان مصطفى صائحين (نريد السلطان مصطفى). ورأى عثمان حرج الموقف فلم يسمعه الا اذ أرسل أمرا الى الصدر الاعظم والى أغا الحرم بالقدوم اليه فلما قدما اسلمهما الى الجند لعل ذلك يخفف من غيظهم. ولم يكذب هذان البائسان يظهران أمام الجند حتى مزقوها اربا اربا ولم يكفهم ذلك لتسكين غيظهم بل أخذوا يبحثون عن السلطان مصطفى. فأشار لهم أحد العلماء بأن السلطان مصطفى موجود في دائرة الحرم. وكانت هذه الدائرة ليس لها باب من داخل البهو فصعدوا على سقفها وهدموا السقف وأنزل احدهم الى أسفل حيث كانوا قد سمعوا بوجود السلطان مصطفى هناك. فوجدوه على مرتبته يتلوى من العطش فسقوه وأخبروه ان الجند ينتظرونه وانهم يرغبون في اعادته الى السلطنة فكان يرتعد من الخوف ولا يجيبهم بشيء. فحملوه الى البهو

الثاني ونادوا به سلطانا ونادوا العلماء اليقسموا له يمين الطاعة فامتنع العلماء أولا ولكنهم رضخوا أخيرا تحت تهديد السيف حتى أن أحدهم مات من الخوف. ثم انطلق الجند بالسلطان مصطفى إلى أمه وكانت امرأة ماكرة تطمع في الملك وتريد أن تحكم باسم ابنها. وبعد أن ذهب الجند بمصطفى انتشرت إشاعة بأن عثمانا سيهاجم مصطفى ويقتله فنقله الأنكشارية إلى قشلاقهم وانتشرت القوضى في لمدينة وزاد النهب والسلب فدعا عثمان الصدر الأعظم السابق وولاه الصدارة واستشاره فيما يجب عمله. فقال له لم يبق سبيل إلا استجلاب رضى الأنكشارية وطلب الحماية من رئيسهم. فقال عثمان لو كان الأمر بيد الأنكشارية وحدهم لكان الخطب ولكن العلماء مشتركون معهم في العصيان والأولى بي أن اتوجه إلى الجانب الأسوي وأظل هناك إلى أن تهدأ الفتنة ويعرف الجند قيمة السلطان الذي ولوه على أنفسهم. فأستصوب الصدر هذا الرأي ولكن لما أراد السلطان ركوب القوارب واجتياز البسفور وجد أن جميع البحارة قد هربوا ولم يبق من يسوق قاربا. فاضطر عثمان إلى اتباع رأى الصدر وذهب إلى بيت أغا الأنكشارية (قائدهم) وذهب حسين باشا بمقدار من الذهب إلى مكان القشلاق عليه يتمكن من شراء بعض زعماء الثورة. ووصل السلطان إلى بيت أغا الأنكشارية فوجده قد ذهب لمبايعة السلطان مصطفى فأنتظره إلى أن جاء وأخبره أنه على استعداد لأن يدفع لكل أنكشاري خمسين دينارا من الذهب ولكل سباهي عشرة قروش زيادة في المرتب فرضى الأغا بعرض هذا الأمر على الجند ولكن الأخبار كانت قد وصلت إلى الجند فقرروا ألا يسمحوا للأغا بالكلام والا يقبلوا مثل هذا التكليف. فلما وصل الأغا إلى القشلاق وصعد المنبر ليتكلم فيما جاء لأجله صاح الجند (اسكت اسكت) ودفعه أحدهم إلى الأرض بقوة وتلقفه الآخرون فزقوه أربا أربا وذهبت طائفة منهم إلى منزله ليأتوا بعثمان، وفي أثناء ذهابهم فتكوا بحسين باشا والقوا جثته في الطريق ثم أنهم أخرجوا عثمانا من مخبئه عارى الرأس ليس عليه من الملابس إلا قميص وسراويل فأركبوه حصانا هزيلا وساروا به بين صيحات الاستهزاء ولكمات التهكم والسخرية فكان هذا للسلطان العظيم والشاب الشجاع يسير في وسط هذه الوحوش المفترسة وتلك الحيوانات الضارية ثابت الجأش هادىء البال ولكنه لما مر على جثة حسين

باشا وهي ملقاة على الارض، لم يتمالك نفسه عن البكاء وقال (هذا والله برىء)
فلو اننى اتبعت نصائحكم لما أصابتنى هذه المصيبة ولكننى اصغيت الى وساوس
الخوذة واغنا الحرم فأضلانى سواء السبيل . فلم يثر هذا الاعتراف اى عطف لدى
هؤلاء الوحوش بل ازدادوا سفاهة وقعة فمن قائل (ما أحلاك ايها الصبي انك
جميل الطلعة يا عثمان) ومن قائل (الا يروق لك الآن مباغطة الخانات وتكبير
الانكشارية والسباهي بالسلاسل والاغلال ورميهم في قاع البحار) ؟ وقال آخر
هل فتح اجدادك الممالك بقوة السكبان ؟ (نوع حديث من العساكر غير الانكشارية
هم المصريون والعرب) هل هم الذين شادوا هذه القلاع ؟ ومثل ذلك من كلمات
التهمك والسخرية وتجاراً ابن صائغ على أن يقرص السلطان في نخده مشغفا قرصه
بكلمات بذيئة . فقال عثمان باكيا ياملعون الست سلطانك ؟ وقد ذهب بعض المؤرخين الى
الادعاء يلتمهم حاولوا الاعتداء الفاضح على شخصه . على هذه الصورة سيق عثمان الى
القشلاق ثم الى السراى وكان الجنود لا يريدون قتله ولكنهم يريدون فقط ان يعقل
ولكن داوود باشا الذى تعين صدراً أعظم من قبل أم السلطان مصطفى ، لانه كان زوج
ابنتها ، اتفق معها على قتله وذهب اليه ومعه جلاد ورئيس حرس القصر . وكان
عثمان يخاطب من حوله بكلمات مؤثرة قائلاً :

(أيها الجنود . ماذا تريدون أن تفعلوا بسلطانكم ؟ انكم تسمعون في خراب
المملكة وفي هلاك أنفسكم) وقال أيضا وقد اغرورقت عيناه بالدموع (سامحوني
اذا كنت قد أغضبت أحدكم بدون علم فبالامس كنت سلطانا والآن عريانا . فاعتبروا
بما صرت اليه فستجزون أنتم أيضا بما كسبت أيديكم . فانتهاز الجلاد فرصة اشتغاله
بالكلام ورمى الحبل في عنقه ليخنقه . ولكن عثمانا كان منتبها فمسك الحبل بقوة
وتخلص ولو مؤقتا من الموت فعند ذلك صاح زعماء الجند : قفوا فما تعملونه
الآن سيجر علينا البلاء غداً . وصاح عثمان مخاطبا داوود باشا « أيها الوحش ماذا
عملت معك ؟ ألم أنقذك مرتين من الموت وأعدتك الى مناصبك ؟ فمن أين تولد عندك
هذا المداء نحوى ؟ » وهنا تداخلت أم السلطان مصطفى وخاطبت زعماء الجند
قائلة « احذروه فانه ثمة ان فلو أفلت منكم لقتلنا جميعا » وأشار داوود باشا الى
الجلاد يخفق عثمان فعارض الزعماء مرة ثانية والتفت عثمان الى رئيس حراسه قائلاً :
« من الذى قلدك هذه الوظيفة » فأجاب « السلطان مصطفى » فقال عثمان ما السلطان

مصطفى الا مجنون لا يعرف اسمه. أفتح النافذة حتى أتحدث الى رعتي فتأثر
رئيس الحرس وفتح النافذة المظلة على فناء المسجد المجتمع فيه الجيش فخطبهم
عثمان قائلاً : أيها الاغوات السباهيه وأنتم يا قدماء الا زكشارية يا أبائي الاعزاء. لقد
ألقيت سمي الى نضائح السوء تحت تأثير طيش الشباب فلم تمنعوني في اذلالى
الى هذا الحد؟ الا تريدوننى اذن؟ فصاحوا صيحة واحدة (لا نريد حكمك ولا نريد
دمك) وحاول الجلاد خنقه الثالث مرة اخرى فلم يتمكن من ذلك فلم يجدوداود باشا
بدا من نقله من السراى الى الحصن ذى السبعة ابراج (يكى قلعه) فتوجه به الى
هناك ومعه الجلاد والسكرتير الخاص ومدير البوليس فتجمع الاربعة عليه ليقتلوه
فلم يتمكنوا وكاد يظهر عليهم لولا أن تمكن الجلاد من القاء الحبل في عنقه وقبض
مدير البوليس على خصيتيه وضغطهما بقوة شديدة فسقط عثمان على الارض
وأسلم الروح. وهكذا تمكن هؤلاء الا تخمين من ارتكاب فعلتهم الشنيعة التى هى
أول حادثة من نوعها في التاريخ العثمانى والتى وصمت هذا التاريخ بوصمة من
العار لا تمحى . ولكن المسدل الالهى أنفذ احكامه فى قاتليه بعد ذلك بعدة
قصيرة وماتوا بعد ذلك أشنع ميتة وهكذا عاقبة الطغيان ما

محمد خليل



مد الاحاد

عن ارثر هداسون

ينتشر سرطان الاحاد بسرعة وتعاليم الهرطقة اخذت تتفشى فى روسيا
واميركا وبريطانيا

وليس بغريب أن يكون الاحاد من بروجرام الشيوعيين الذين يشبهون
لتوطيده. لا اعتبارهم اياه آله فعاله لنشر تعاليمهم. ولكنه أصبح فى انجلترا
من الخاصيات التى اخذت تظهر فى خلال نظامى الاجتماعى واخذ يوطد لذاته
مركزا فى اميركا مشابها للاعتقادات المعترف بها اذ يقولون أن « فكرة
الله مفسدة للاخلاق وأن الكتاب (المقدس) ليس أكثر من مجموعة
خرافات سخيفة »

ومرمى الاحاد البريطانى سياسى صرف فدعائته يبذلون الجهد لنشره بين
الطلبة. ومن المدارس واحدة تعلم « أن فكرة الصلب سخيفة لدرجة لا تقبلها
عقول العمال الساذجة » والدافع على نشر هذه التعاليم بين الطلاب يتجلى لك اذا
قرأت « انه يجب تفهيم التلامذة معنى التنازع الطائفى ليتيسر فى المستقبل تكوين
جماعة كبيرة منهم » ولكن ليس من السهل اصدار حكم عن نتيجة هذه المحاولات
لانها لم تبدأ الا من عهد قريب. وهنا يجب الاعتراف بان الملحدين ينشرون
دعوتهم بنشاط ولباقة تستأثر بقلوب الصغار. فلهم اصطلاحات تستلفت
الابصار فهم يسمون العمال « العبيد المأجورين » ، و اخرى تستدعى
الدهشه مثل « ان أسخف ماخطه قلم تجده فى الكتاب المقدس » و « ليسقط
الملوك » و « يوجد آله واحد هو العلم الاحمر رمز الحرية » هذا موجز شخص
داء السرطان الذى أصيبت به بريطانيا ، وأما فى اميركا فالحالة تدعو الى التشاؤم
أكثر فهناك تبدل جميعات الاحاد جهودا عظيمة فى نشر مبادئ « جماعة نشر
الاحاد الاميريكية » وهى التى طلب اصدار مرسوم بتأليفها فى شهر اكتوبر
سنة ١٩٢٥ على مبدأ ان الايمان ليس أكثر من ايمان فى من لاوجود له « ولا

ورغما عن رفض اثنين من القضاة اعطاء التصريح ، صدر في نوفمبر من نفس السنة ، وبذلك اعترف بالالحاد رسميا لأول مرة في تاريخ العالم في خارج روسيا السوفيتية وأصبح في مقدور هذه الجمعية نشر الاحاد جهارا . وفعلا نجحت في انشاء افرع لها في عشرين من المدارس التحضيرية والكليات وفي ثلاث مدارس عالية وفي تنظيم جمعية للشبان الملحدين . ولهم دعاة في احدى قطع البحرية الاميريكية وفي منطقة القنال في بناما والاسكا وقد تشيع لتعاليمها بعض رجال الدين وشباب اليهود واساتذة الجامعات .

ومن دعاةهم المدرسين خطباء ومبشرون وموزعون نشرات يحركهم صندوق بوسته في نيويورك وذلك لخوف الزعماء من هجوم العامة عليهم . ولهم اسبوعية اسمها « الباحثة عن الحقيقة » هي لسان حالهم وقد صرح احد كبار رؤساء هذه الجماعة انه يوجد من اساتذة الكليات من يمنعهم خوف الاضطهاد عن التصريح بالحادهم وعددهم كثير وهمهم منحصرون في الوقت الحالي في التغاضي عن ذلك والتشجيع على الاحاد ، وسيأتي الوقت الذي يعلنون فيه مايبطلون

وتسمى افرع الجمعية باسماء منتحلة مثل « ملائكة الشيطان » ومن وسائلهم انهم صرفوا ٨٠ جنيها في ارسال أسئلة للعلماء يستفتونهم بها . وقد اتضح من الاجابات ان ٧٥ في المائة من العلماء ملحدون لا يؤمنون بالله ولا بالحياة الاخرى واليك بعض تعاريفهم

الكنيسة الكاثوليكية ليست الا مجموعة كبيرة من الطفيليات لها تاريخ مملوء بالفظائع البربرية وبحسب لها السياسيون حسابا غير يسير ويرتعد العامة منها فرقا . . . هي أحق من غيرها بلقب « الحمراء » تجتذب صفار العقول من الناس الى اوثنان مقدسة وبقايا اناس مقدسين والى مياه مقدسة . . . ولا تزال المسيحية تن من البر وتستانتية ومن نير الاضطهادات كما كانت في عهد البابوات ليست البر وتستانتية هي التي خولت المحاكم الحق في اعدام الملحدين . واليست جمعية كوكلو كس كلان جمعية برو تستانتية عدوها الكاثوليكية والشموب الملونة؟ واليهود والاميريكان ايضا . ليست هي التي يتهمها الناس باقتراف الجرائم والاضطهادات في سواد الليل؟ وهل هناك من ينكر مسيحيتها مادامت تحمل

الأنجيل في يد بينا تحارب العلم بالآخرى ؟
 اما نشراتهم فتعنون بما يلفت الانظار مثل لاندع الكتاب المقدس يستغفلك
 إمنعه من دخول المدارس . ولهم تسعة مطالب هي

- ١ اخذ ضرائب من الكنائس
- ٢ فصل المتدينين من داره التدبيرة ومعاهد التشريع والحربية والبحرية
- ٣ منع جمع الاموال للمعاهد الدينية
- ٤ منع تعليم الدين وقراءة الكتاب المقدس في المدارس
- ٥ عدم الاهتمام رسميا بالاعيان وبالاخفالات الدينية
- ٦ منع القسم على الكتاب
- ٧ عدم اعتبار الاحد يوم راحة رسمية
- ٨ محو ما يسمونه الاخلاق المسيحية وابدالها بالاخلاق الطبيعية والماواة
 في الحقوق والحرية
- ٩ ازالة « على الله تتكل » من النقود . والجمعية الشبان الملحنين مجلة شهرية
 تصدرها في الغرب في ١٦ صفحة آتية في السابعة عشرة من عمرها صدرت من
 أربع سنوات تحوى أشياء غريبة اليك بعضها
- قتل خمسين الف عبراني لان أحدهم نظر الى قوس الرب ، والمنتظر أنه لم ير
 آله فيها وباح بما رآه فنتج عن ذلك مذبحه لازالة الاحاد
 المؤمن هو المصاب بضعف في قوة التفكير
 يلبس القس يافته ملقاة الى الخلف بامل أن ينتقل وجهه الى ورائه ليكون
 من السهل عاينه الوصول الى عهد ما قبل التاريخ
 وبها دائرة معارف اليك شيء منها

حمار سيارة المسيح المختارة سرق له تلاميذه اثنين ركبهما ثم دخل بيت المقدس
قدير مرادف لفظ الله الذي اثبت قدرته بمعجزه عن منع نشوب الحرب
 الكبرى التي ظلت تستمر خمس سنوات حتى لم يجدوا مالا ينفقونه في الاستمرار
 على الحرب ، وبتركة عشرة ملايين من المسلمين يموتون من المرض والجوع
زرادشت فارسي انشأ واحدا من ٣٦٥ من الاديان التي يدعى بانها صحيحة

صلاة لغة حارة أصل المقصود منها هو افهام التقدير ماذا يجب عليه أن يفعل بالكون . ولأن الاصوات ترتفع دفعة واحدة بالآلاف من اللهجات يقف حائراً لا يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل

مسيح كائن هبط كي يخلص العالم فمجز عن تخليص نفسه هذا هو مبلغ ما وصلت اليه تعاليم الملحدون في أمريكا . وفي هذا نزعة خطيرة قد تتناول آثارها الكثير من نظم المدينة الحديثة إن قدر لها الذبوع

بندليكت سبينوزا

من أعظم رواد الفكر الانشائي

١٦٣٢ - ١٦٧٧

مولده

في الحادى والعشرين من شهر فبراير المقبل ، يكون قد مضى على وفاة سبينوزا الفيلسوف العظيم ٢٥١ عاماً ، فقد توفى فى مثل هذا اليوم من سنة ١٦٧٧ ، فيكون قد عاش نحواً من ٤٥ عاماً !!!

ولد في امستردام سنة ١٦٣٢ من تاجر ، (يهودى) هاجر من جنوب البرتغال فراراً من اضطهاد الكاثوليك لليهود .

واما أمه فقد توفيت ولما يبلغ السادسة من عمره !
العجوز (القديسة)

ومن الطف ما يروى عن أيام طفولته ، ان أباه كلفه يوماً من الأيام بان يذهب فى استرداد مبلغ اقترضته منه امرأة عجوز فى « امسترام » ، فذهب (سبينوزا) اليها ، ولما دخل حجرتها ، وجدها تقرأ « التوراة » ، فشارت اليه ان يترث حتى تنتهى من صلاتها وتضرعاتها ، ثم اخذ يذكر ما حدا به الى الميحيى ، فذهبت واحضرت المبلغ وعدته له ، ووضعته على المنضدة وهى تقول :

(هل تكون يوماً رجلاً مستقيماً كايك ؟ ! ليباركك الله ويحفظك بقدر

اقتفائك لآثره وخطواته) ١١ وبعد أن ختمت دعائها ، اخذت المبلغ في يدها لتضمه في كيس « الطفل » وهو بعد في « العاشرة » فاعترضها طالبا ان يعدها المبلغ « بنفسه » ، فحاولت منعه فلم تفلح ، فوجدتها قد انقصت المبلغ قطعتين من الذهب البندقي ، تساوى القطعة منهما ريالين وربع ريال ، ازلقتهما هذه المعجوز « القديسة » الى درج من فتحه ضيقة على المنضدة ١١١ !

وعاد « سبينوزا » فرحا ، يقص لآبيه خبر ضبطه لهذه « الجريمة » ١١١ ... وخصوصا من « قديسة » لم تفرغ بعد صلاتها « الحارة » ١١١ ولا شك ان « ثقته » (بالقديسين والقديسات) قد « تضاعفت » بعد اكتشافه لهذه الجريمة ١١١ !

(دراسة للآداب العبرية)

وعكف على دراسة الآداب العبرية ، ككل الشباب اليهودي في ذلك العصر او كما يقولون ، على زعم ان يكون (ريبيا) او حاخاما ١١١ ! ولكن قد خاب فألهم فاكاد يبلغ الخامسة عشرة حتى ابتداء يرتاب ويشك ، ولكنه كان يتظاهر « بارتياحه الكلي » لاجوبة الحاخام على اسئلته ، خشية غضبه ، ويقتصر على تدوينها للانتفاع بها في الوقت والمكان المناسبين !
تعمقه في دراسة الفلسفة

ولم يرتو من « التلمود » وغير التلمود ، فأخذ يكب على دراسة « الفلسفة » وهو حقيقة مدين في الاكثر « لديكارت » فقد استفاد منه أكبر فائدة ، و مدين للعالم والفيلسوف الكبير (برونو) وكان يعتقد بالوهمية القوي والنواميس الطبيعية فحكمت عليه محكمة التفتيش بالحرق !
همة الهرطقة وحرمانه

وقد كان بين المنتفين من حوله ، شابان يدعيان انهما اخلصا المخلصين اليه فالحا عليه ان يصرحهما لهما ببعض آرائه ومعتقداته ، في الله ، والملائكة والمعجزات ، والخلود ، واكداله أشد تأكيدا انه مهما بلغت افكاره من التطرف ، فليأمن جانبهما ، فتمنع ، ثم عاد فصرح لهما بما صرح ، فاتهموه بالهرطقة ، وصبوا عليه جامات غضبهم وامناتهم ، ولقبوه « بامير الملحدين » و شيخ الكافرين

وحكموا عليه بالحرمان من الكنيسة فأصبح لا يعد من « شعب الله المختار » من ٢٧ يوليو سنة ١٦٥٦ ، وهو بعد في عنفوان شبابه أى في الرابعة والعشرين ! . وقد كان الحرمان بداية عظمته ومجده III ...

عزوبته

ولم يكن « سبينوزا » من جماعة الزاهدين المتقشفين ولكنه ظل بعيداً عن « منطقة الخطر » فلم يجازف بحياته II اما لأنه قد خشي ان يسىء اليه القدر فيرزقه بامرأة لا يطيب معها العيش ، فيشقى ، واما ان يكون عشقه للفلسفة قد ملك عليه لبه ، وفؤاده ، فلم يعد هناك موضع لامرأة لتحتله « وتمسك » فيه III بعض صفاته

وقد كان طلق المحيا ، بشوشا ، أميناً ، غفيفاً ، رزيناً ، محسناً ، صبوراً ، ممتلاً حيوية ونشاطاً ، وفوق ذلك ، كان نظيفاً مرتباً على غير عادة الفلاسفة I عاش عيشة البساطة ، والفقر ، وعدم ايثار النفس ، راضياً بدخله الضئيل ، فلم يسمع انه شكى أو تذمر .
« رفضه وظيفه استاذ في جامعة »

وقد عرض عليه أن يكون استاذاً للفلسفة في جامعة هايدلبرج في سنة ١٦٧٣ وان يطلق له أكبر قسط من الحرية في الكلام عن الفلسفة ، ولكن لا يسمح له ان يقاوم المسيحية ، او يززع ثقة الناس الدينيه ، فرأى استحالة قبوله لهذه « الوظيفة » خوفاً من أن تعرقه عن مواصلة للبحث والدرس كما انه لم يكن قوياً ، ولم يكن له سابق اختيار في التدريس .

علم البصريات

وقد بقي راضياً بكسبه من وراء سن العدسات البى تستعمل في الميكروسكوبات والتلسكوبات ، ولولم يكن الموت الاغمي قد عثر به فتمجله قبل اوانه لكان وقف على كثير من اسرار « علم البصريات » اذ كان يخصص لدراسته بضع ساعات كل يوم !

ضعف صحته

وقد ظل عليلاً طول حياته ، ومع شدة احتياجه للراحة لم يكن ليشفق
(م ٨ - ٥ ع)

قيل انه قضى ثلاثة اشهر كاملة لا يفارق فيها منزله !! وأنه كان يسهر مكبا على الدرس والتأليف ، على ضوء « القنديل » من العاشرة ليلا حتى الثالثة صباحا !!!
مرضه وموته

فناء طبعا ، تحت هذا الحمل الثقيل ، واعتلت صحته واصيب بالسل الرئوى واشتد عليه المرض ، فأرسل يوم السبت ٢٠ فبراير سنة ١٦٧٧ يستدعى احداً صدقائه الاطباء من « امستردام » هو الدكتور ميير . وفي يوم الاحد في نحو الساعة الثالثة عصر السلم الروح ! ولم يكن بجانب سريريه غير صديقه ميير !!
ولكن سبنيزا حي لن يموت !!!

خالد بكتاباتة التي تعد من كنوز الفلسفة الثمينة ومن اعظم ما كتب الكاتبون
مكتبة سبنيزا

وقد جاهد بدموته كثير من العلماء في أمستردام ، ليحصلوا على الكتب التي تركها بمكتبته ، ولكنه لم يترك غير ١٦١ كتابا ، فتنافسوا في شرائها تنافسا عظيما ودفعوا فيها اثمانا باهظة جدا

ولم يجدوا بينها مقالته عن (قوس قزح) وكان يظن انه رماها في النار في السنة التي توفي فيها في ليلة من ليالى العيد
ولكنها ظهرت سنة ١٨٦٠
مؤلفاته الخالدة

لم يظهر لسبنيزا خلال سنى حياته سوى كتابين الاول ترجمة الجزأين الاولين من كتاب ديكارت « مبادئ الفلسفة » أثبت ما فيها على الطريقة الهندسية . بمعنى انه وضعه في اوليات وتعاريف ، وقضايا واستنتاجات ، وقد اقتصر على ماله .
مساس بالميتا فيزيقا واهمل الباقي ، وأضاف في ذيل الكتاب بعض آرائه الخاصة في الميتا فيزيقا وقد طبعه سنة ١٦٦٧

وأما كتابه الثانى « مقاله في اللاهوت السياسى » فقد ظهرت سنة ١٦٧٠
وأعيد طبعها في سنة ١٦٧٣ والطبعة الثانية ادق من الاولى وقد دأق فيها عن الحرية الفكرية ووجوب فصل الكنيسة عن « الدولة »

الايثيكا

وأما أعظم كتبه فهو « الايثيكا » امتع ما أخرج الفلاسفة في التيافيزيقا وقد كتبه أيام ان كان يعيش عيشة هادئة في فوريبورج في سنة ١٦٦٣ وهي إحدى ضواحي الهاي على بعد ميلين منها ، ولم ينته منه الا صيف سنة ١٦٦٥ وقد سافر في نفس هذه السنة الى « امستردام » ليتفق على نشره غير أنه لما أراد نشره من غير أن يذكر اسمه استحال عليه الامر لان بعض اجزائه كانت قد وصلت الى ايدي الكثيرين فرأى تأجيل طبعه . ثم عاد يفكر في نشره سنة ١٦٧٥ وسافر فعلا الى « امستردام » ولكن انتشرت اشاعة ان « سبينوزا » سينشر كتابا ينكر فيه وجود الله ! فقامت قيامة رجال اللاهوت فنداه جانباً ثانية ، ولم ينشر الا بعد موته !

بعض آرائه السياسية

كان يعجب بأراء مكيا في اعجابا يفوق الوصف فقد كانت الصعوبات التي اعترضت هولندا من سياسة اوربا تشبه مالا قتته المدن الايطالية في القرن الخامس عشر .

فكان يرى معه ان المبادئ التي يمكن تطبيقها على « الأحرار » قد لا يمكن تطبيقها على « الدول » دائماً . وان أهم واجبات الدولة ان تحمي مصالح رعاياها ، وعلى ذلك يستحيل عليها ان ترتبط بمعاهدات تتعارض مع هذه الغاية الرئيسية وهي مصلحة الافراد . وكان يرى « سبينوزا » ان تنازع الدول وبعضها ، امر لا مفر منه اللهم الا اذا تألفت قوة اكبر من اى منها ، وان التحالف الدولي أمر مرغوب فيه كثيراً ، وانه وسيلة لانهاء الحروب وتخفيف وطأتها . ولم ينظر كما نظر غيره الى الدولة State على انها شر لا بد منه ولكنه كان يرى انها « ضرورة » لا تتعارض مع العقل ، خلقها البشر ، لاعن طريق « الخوف » ولكن عندما تأكدوا انها ضرورية لاسعادهم وقضاء مصالحهم . وان الدولة قامت في الاصل على انضمام الافراد الى بعضهم بمحض ارادتهم فالتحدت قوى الافراد ورأوا ان مصالحتهم تقضي عليهم ان تكون هناك قوة حاكمة عليهم فتنازلوا لها عن حقوقهم الطبيعية .

ولم يصبح الافراد حقوقا الامانة لهم الدولة . ولكنه لم يتعمق في بحث نظرية « المقد الاجتماعي » فكتفى بسياسة زمانه (العملية) ولذلك فصل بين (الدولة) (وحاكم) الدولة . ووضع السيادة في (الدولة) لافي (الحاكم) .

وقد شدد على وجوب اتحاد الدولة ووحدتها ولكنه كان يرى أن هذه (الوحدة) هي مجموعة مشيئات الافراد واراداتهم ، لا ارادة فرد واحد .

وهذه الافكار اساس نظرية (روسو) في (الارادة العامة) وقد فصل بين (الدولة) (والحكومة)

ومال الى ناحية (الجمهورية الاستقرائية) وابعض الديموقراطيه (المتطرفة) وقد كان يرى استحالة الملكية وسيادة فرد واحد سيادة فعلية مطلقة .

كان حريصا على حفظ حرية الفرد ، وترك الناس أحرارا يعيشون بمقولههم ، وكان يرى أن صون هذه الحرية اهم غرض يجب أن ترمى اليه الدولة ، وعلى ذلك فليست هناك سيادة مطلقة للدولة اذ أنها تقف عند حقوق افرادها الطبيعية

و (سبينورا) من أكبر المدافعين عن الحرية الدينية وانصارها وكان يقدر الحرية الفكرية لا لأنها حيوية لتقدم الفرد وحفظه هيئته وكرامته فحسب ، بل لأنها جوهرية لسلامة * الدولة * ذاتها وسعادتها .

وقد كانت فلسفته الدينية سببا لبعضه وكراهيته ردحا من الزمان طويلا ،

وبقي موضع سخريه الناس قرنا كاملا حتى كانوا يستهزئون به قائلين « انه لا بد من ان يكون يوم الدينونه متربعا على عرش جهنم ، وقد توج على أهلها ملكا » ،

ولكن هذه الآراء قد ذابت تحت نيران الفكر الحديث بعد الصراع الشديد

بين رجال الدين و رجال العلم

وبدأ الناس يغيرون رأيهم فيه من سنة ١٧٨٠ ويعدونه من أعظم المفكرين

وقادة الفكر البشري واشرف يهودى ظهر بعد بولس الرسول . وقد طبعت

فلسفة القرن التاسع عشر بطابعه ودمغت بفكرته وسيكون لفلسفته شأن عظيم

في المستقبل

وقد أقاموا له تمثالا في الهاي في سنة ١٨٨٠ جمعت ثقافته من تلاميذه

المعجبين به ايما اعجاب المشتتين في معظم ممالك العالم . وأما الكوخ الصغير

الذي عاش فيه فقد عملت (الجمعية الاسبيوزية) على ترميمه وجمعت فيه آثاره
الخالدة ، وأصبح يسمى اليوم (متحف سبينورا)
جامعة بيروت كامل صموئيل مسيحه

فلسفة التاريخ

— ١ —

تمهيد تاريخي

كان الغرض الاسمي للمدرسة التي تعتبر ان للتاريخ فلسفة هو تصورها تاريخ
البشرية كوحدة كاملة ومظهر نظام او غاية ذات قيمة ذاتية يقرب الوصول اليها
متى تفهمنا تسلسل الحوادث كحقيقة كاملة . اى ان نظرية فلسفة التاريخ هي السعى
وراء اثبات غاية نستخلصها ونستنتجها من سير الحوادث بقدر مايتاح لعقولنا
من الملاحظة والحكم . هذه الغاية متى وضعت نصب أعيننا تقرب حوادث التاريخ
من دائرة التحقيق والحكم المنطقي وبدونه تظل هذه الحوادث مجموعة مآس
ومفاجآت وصور لا طائل تحتها ولا معنى . فلو لم تطو حوادث فلسفة التاريخ
مغزى وعبر ، فكيف نكيف جهاد الانسانية الشاق ومايطويه من آلام وأشجان
وتضحيات قد منها الانسانية على مذبح التقدم الانساني :

وقد كان فولتير وصديقه فريدريك الاكبر شغوفين بان يعزوا حوادث البشر
الى يد صاحبة الجلالة الصدفية .

ان النظرية الاساسية التي تركز عليها فلسفة التاريخ هي الاعتراف بعناية
سامية تسوس مقادير البشر وتفسر كفاح الافراد والامم نحو غايات متنافره
واقدار متباينة وهذا التناحر هو ما شاد بذكره هيغل ونعته بمجهر العقل او
ملكه العقل التي تسخر اهواء البشر وتلاعب بارادة الافراد كآلة تسخر للوصول
الى الاغراض العليا للانسانية ، بحيث تنبت من هذه الفوضى الظاهرة فكرتان
النظام والصالح . وهما دعامتا الحرية المنظمة في الدول المتقدمة

ان تكيف نظرية فلسفة التاريخ بهذا الوضع تحتم علينا قبول منطقيتها
مبدئيا . فعلى منوالها وطبق منهجها يجب ان نبدأ بدراسة التاريخ بحيث نسترشد
بها كفرض مبدئي ونستنتج مجموع النظريات التي نطلق عليها فلسفة التاريخ من
البحاثنا ومجموع الوقائع الواقعة في دائرة بحثنا .

وكما انه في ميدان الفلسفة يوجد المتشككون كذلك يوجد من لا يعترفون
ان للتاريخ فلسفة ولا يرون ان وراء وقائع التاريخ غرضا يتجه اليه عالم البشرية .
انه ولو ان هذه العبارة صيغت منذ قرن ونصف الا ان تصور أن للتاريخ
فلسفة يرجع الى عصور أبعد مدى من ذلك — اى الى التاريخ العبرى وعصر
النبوة عند المبرانيين فقد كان المبرانيون يعتقدون انهم شعب « يهوفا » المختار
رمز العناية الالهية عندهم

وهو الذى يقودهم الى النصر . ثم اتسع عندهم هذا المعنى حتى تصوروه القابض
على مصائر العالم ومصدر العناية الكونية التي تخصص لكل امة مركزها في
العالم ودورها الذى تقوم بتمثيله في دورة التاريخ . وانا لنامح في العبارة التي
وردت في الكتاب المقدس ان اشور هي سوط نقمة يهوفا وسوط نقمته وغضبه
أذيب العصاة بداية فلسفة للتاريخ وفي اختيار اسرائيل لحكمة سامية
غرضها التربية الروحية .

فالشعب المختار تهذيبه وروض افراده على احقاق الحق وازهاق الباطل
لجدير بان تحمل به التهمة الالهية متى حاد عن جادة الحق ومال الى الباطل ولذلك
نجد في الكتب السماوية ان الشعوب الوثنية تسلط كسوط عذاب لتأديب
العصاة .

وفي القرآن الشريف (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها
فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)

ثم تطورت هذه الفكرة حتى وسعت العالم فشملت فكرة (يهوفا) عند
المبرانيين عناية كونية لا تعرف فوارق الجنس أو اللغة وفنت فيها ريبة العداء
الجنسى واحقادهم فتولد الحكم التاريخى العظيم القائم على تصور العالم مملكة واحدة
واسعة الاطراف لها وحدة سياسية تربطها بالامم المجاورة وهذه (الطوبى) كان
الانبياء الاول يتصورونها نهاية تاريخ العالم .

وكانوا يفسرون ما آلهما كخضوع العالم للرسالة الروحية القائلة بالوصول الى معرفة الاكله الحق والاعتراف بارادته الرشيدة . الى هنا يمكننا تلخيص فلسفة التاريخ كما تصورتها الكتب المنزلة بان يسلط على الشعب العاصي سوط العذاب بحيث تقوم بمهمتها بطريقة سريعة نافذة معجلة كوباء يحل بمن حقت عليهم الكلمة أو جيش غزاة يجتاح أرض الفاسقين أو طيرا أبابيل ترمي بحجارة من سجيل أو ريح صرصر عاتية . وهنا تصوير قيام ظواهر الطبيعة القاسية الجبارة كأداة عذاب أو أسواط نعمة .

وفي الكتابات التي قبل المسيحية بقرن ونصف نرى فلسفة التاريخ تتجه نحو غايتين أو فكرتين هما النبوءة بالخلاص من معاصي وذنوب هذا العالم المادي نحو الطهارة الروحية في العالم العلوي حيث تسود العدالة وترتفع روح الاخوة على الأكوان .

وتتقرن هذه الفكرة بزوال العالم بنكبة من النكبات تقضي على هذا النظام: بيد أن هذا الخلاص لا يتم بوساطة العوامل الطبيعية وتسلسل الحوادث أو عمل البشر إذ أن انتصار الحق والعدالة يجب أن يتحقق بوساطة العناية الالهية أو إحدى الوسائط الخارقة للطبيعة بحيث يختتم بذلك تاريخ العالم .

هكذا كانت الافكار السائدة حين بزغت شمس المسيحية وقصارى القول أن ما آل تاريخ العالم عند العبرانيين هو القضاء على قوى الشر والفساد وان خلاص بنى اسرائيل سيتم في اوج محنتهم بوساطة قوى من وراء الطبيعة .
بداية فلسفه مسيحيه للتاريخ

في بداية القرن الثالث اختبرت فكرة تكوين كونه تحت لواء المسيحية ونمت حتى أصبحت عقيدة ساعدت على انتشارها سلسلة الظروف الخارجية وانتشار النفوذ والثقافة اليونانية عقب فتوحات الاسكندريره خفضت اقطار اللغة مشتركة وقارب ذلك بين آرائها وعقب ذلك ازدياد نفوذ روما وهي محور امبراطورية مترامية الأطراف بفضل انتشار لغتها ونظم حضارتها والطرق البديعه التي انشأتها لربط ممتلكاتها النائية واستتباب الأمن في الاقطار الواقعة تحت سلطانها .

وقد خلق وجود مستعمرات طائفية لليهود في ممتلكات روما مجالا

لدعاة المسيحية المبشرين لبث تعاليمهم . ومن ثم اعتبرت الطوائف المسيحية كأنها خليفة العبرانيين في الاعتقاد الراسخ برسالتهم ومهمتهم في العالم لأحداث انقلاب روحاني واتخذوا لانفسهم نعوت العبرانيين بأنهم (شعب الله المختار) وانهم الجنس الثالث تمييزاً لهم عن اليهود من جهة واليونان من جهة أخرى ومن ذلك كان التقسيم الى اليهود واليونان و المسيحيين اساس فلسفة التاريخ عند حد تصور الكنيسة .

وقد كانت فلسفة كليمان الاسكندري الدينية اساسها ان اليهود والروم من الفسقة وان من يعتنق منهم الدين الصحيح (المسيحية) هو وحده يصبح من المؤمنين الذين خلصوا من الخطايا الدنيوية وهذه الفكرة تؤيد مرة أخرى العقيدة التي كثيرا ما نلقاها في التاريخ وهو ان كل مجدد يكيف فلسفته طبق تصوره وعلى حد ادراكه . وان رسالة « مدينة الرب » التي كتبها القديس أوغسطين في أوائل القرن الخامس هي أول تصوير كامل للنظرية المسيحية كتب ، وكانت وطأة التأثير الاليم الذي أحدثه نهب روما على يد جيوش الاربيك الفوطي بالغة أشدها . وتدور نظريته لفلسفة التاريخ على محور المقابلة والمناضلة بين طائفتين او ملكوتين ، ملكوت الآلهة السماوى وملكوت الارض او ملكوت الشيطان كما سماه واساسه (وهذا التأويل يتفق ونظرية العبرانيين) عصيان بعض الملائكة وفيما يختص بمصير الانسان من سقوط آدم وهبوطه . ومن هنا نشأت طائفتان وشعبان من الناس احداها تسودها محبة النفس وهواها والاخرى محبة الله والناس . فالاولى ما آلهها التألف مع الخالق والثانية مصيرها سوء العقاب والحشر مع زمرة الشيطان .

وقد كانت الامثلة التاريخية تضرب للمدينة الدنيوية مثل روم وبابل بينما كان رمز (المدينة الالهية) اليهودية وذلك قبل العصر المسيحي الذي احل رجال الكنيسة المصطفين محل بنى اسرائيل

وقد قسم اغسطين تاريخ العالم الى ست فترات (تقابل أيام الخليفة الست) آخرها فترة العصر المسيحي . وحسب نظريته سيكون مصير العالم الى الزوال كما استراح الخالق في اليوم السابع ، اذ كان منشأ هذه النظرية الواعز والعقيدة الدينية

ومما يقضى على تصور التاريخ طبق هذه النظرية بالتسفيه هو تقسيم التاريخ الى قسمين متناقضين منفصلين « التاريخ المقدس » والتاريخ العلماني (او الدنس)

كما كانوا يطلقون على تاريخ كل شيء في العالم عددا الكنيسة . وهذه النظرية
الاوغسطينية ظلت عقيدة القرون الوسطى واثبتها بنصها الفيلسوف الفرنسي بوسيه
في كتابه « رسالة في تاريخ الكون » في نهاية القرن السابع عشر م
(فيلوزوف)

النقد والتأليف

الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية (١)

للشيخ محمد عبده

كتاب الاسلام والنصرانية لمؤلفه الامام محمد عبده هو تلخيص لكتاب
« تاريخ النضال بين العلم والدين » للاستاذ درابر وتسهيل معرفة ذلك اذا قرأت كتاب
الاستاذ خصوصا الصفحات من ١٢ — ٤٤ و ٨١ — ٨٦ و ٩٠ — ٩٩ و ١٣٠ —
١٤٤ — وقارنت ما فيها بما هو موجود في كتاب درابر فالتغنى بمفاخر الاسلام
نقل عن درابر والجملة على المسيحية نقلت عن درابر أيضا ومع هذا لم يشتر الامام
الى انه ناقل الا مرة واحدة في صفحة ١٥ حيث ذكر اسم درابر وحصر جملة منقولة
عنه بين اربع ضمت وقال في الصفحة ٩٠ انه نقل جملة عن بعض حكماء الغربيين
وقد كتب الناشر في الحاشية الى هذا البعض هو درابر واما الباقي فيخيل للقارىء
انه من قلم الاستاذ الامام . وهذا امر يؤسف له كل الاسف

وقد نقل الاستاذ عن غير درابر ايضا ولكنه ذكر المصدر الذي نقل عنه
وذلك لان ما نقله لا يتعدى بضع فقرات (صفحة ٨٦ و ٨٨ و ٨٩ و ١٥٩)

والمقصود من وضع الكتاب هــ الرد على دعاوى لصاحب مجلة الجامعة
رأى فيها الشيخ محمد عبده تحاملا على الاسلام فاندفع يناضل عن دينه بكل
ما وصلت اليه يده من الوسائل وملخص . أیه أن كل الشوائب التي علق بالاسلام
وقد اظهرها ، تسبب فيها الدين اسماهم « حملة العائم » (صفحات ٩٠ و ١٠٠ و ١٠١
و ١٤٧ وغيرها) وكأنه اراد ان يكيل لمناظره الكيل كيلين فالصق كل الشوائب العالقة
بالمسيحية بآلهم الدين ذاته ولم يقل ان الاكثريوس هم السبب في ذلك كما أنهم علماء
المسلمين ولم يقف عند هذا الحد بل اصبح مفسرا للانجيل ولكن على نسق مفسري

الآية (فأتوهن أنى شئتم) وهذا ما كنا نربأ بالاستاذ من الوقوع فيه فمثلا
 فسر (لاتظنوا أنى جئت لالقي سلاما على الارض) بما لا يتفق مطلقا مع روح
 المسيحية خصوصا وهى فى عهد الفطرة وكذلك فسر «الحق الحق اقول لكم
 كل ما تربطونه على الارض يكون مربوطا فى السماء» بتفسير (حملة القلائس)
 الذين ورثوا حواربى المسيح متفاضين عن الظروف التى قيلت فيها هذه
 الجملة والمعنى الذى ترمى اليه ومتناسين ان الوكالة لاتنوارث
 فالامام الشيخ محمد عبده لم ينصف المسيحية بل تحامل عليها بدون مرر
 وكان يمكنه ان يرد سهام مناظره الى صدره دون ان يجرح ديننا آخر ولكن
 هذا الذى وقع بكل اسف

ويمكنك استخراج الحشو المكتوب من عنديات الاستاذ الامام فى هيكل كتاب
 درابر بسهولة فكلامه عليه مسحة الجدل الازهرى مثلا (ان الانجيل قد فصل بين
 السلطتين الدينية والمدنية بكلمة واحدة فى حين ان الاسلام قد فصل بينهما بكلمتين
 (صفحتى ٨ و ٩) ومثلا عند رده على صاحب الجامعة الذى رمى الاسلام تهمة الاضطهاد
 لان بعض الناس بصق على ابن رشد فقال (ابن الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم
 عند المسلمين (ص ٨ و ٩) مع أنه يعطى امثلة على هذا. مثلا محاولة طعن الشيخ
 عليش السنوسى بحرية الخلاف فى رأى (ص ١٠١) ولع المسلمين بالتكفير
 والتفسيق (ص ١٤٧) زج السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى فى سجن مصر ثم
 فى سجن الاستانه (ص ١٠٠) وغير ذلك

فهو يريد أن يتهم المسيحية بالاضطهادات التى اجراها رجال الدين ولكن
 لا يتهم الاسلام بالمثل بل يتهم رجاله فقط اليس هذا منطق عجيب ؟
 والذى يقرأ هذا الكتاب يمكنه تعرف مقدار ما اتصل اليه العقلية القديمة
 اذا اختلطت بعقول أتباع المدرسة العصرية ورامت أن تنحو نحوهم. ولما انهيت
 الكتاب قلت لنفسي هل حقيقة كان الملتفون حول الامام ينهلون من قبض معارفه
 أم كانوا يلقنونه ما جادت به قرائح الغربيين فيهضمها على علائها ثم يبسطها كأنها
 من عندياته دون أن يحور فيها بالاقبل ؟

احسان

رد على نقد

سيدى محرر (العصور)

لم يسعدني حظي قبل اليوم بقراءة العدد الثالث من مجلتكم والاطلاع على ما كتبه حضرة (ناقد) . واني اعتبر ما كتبه - بالنسبة لكتابة كثيرين من حضرات النقاد - نقداً أدبياً مشروعاً مهما كانت أخطاؤه ، ومن أجل هذا أشكره عليه كما أشكر لكم عنايتكم بنشره ، وكما كان بودي لو أن حضرة الناقد لم يسترحني كنت أستطيع زيادة الاستفادة من أدبه بالرجوع الى أمثلة من شعره اذا كان شاعراً ، أو بالرجوع الى نظم من يقدرهم من شعراء لافهم حق الفهم ماهو ذوقه الأدبي وما هو مثله الأعلى في الشعر .

إني لا أتعرض لوصفه الاوبرا (احسان) بما وصف ، لان هذا ليس بنقد حدى أساسه الدرس والمعرفة ، وهو شبيه بنقد سابق لقصة (عبده بك) وحسبى أنه تجاهل بحثى التاريخى الفنى في ذيل الكتاب عند التطبيق ، فحكم بذلك على وجهة نظره ، كما لا أتعرض برد طويل لما مس به غيرى ، فكلهم قادرون على الرد عليه اذا شأؤوا ، وسأكتفى بإجابة أسئلته والتعليق على ملاحظاته الخاصة بى . وأول ما يشيردهشتى أن يعترض حضرة الناقد على حجم الكتاب . وبينما يرى أن القصة لا قيمة لها لا يرضيه أن يجد بعض التعويض الأدبى فيما خطته أقلام أخرى لادباء معروفين وان امتعض لما فيها من اطراء وتقدير للمؤلف ، ولم يستطع كتم ذلك فباح - على حد تعبيره - بيت القصيد من مقدمته الطويلة فى صفحة ونصف الصفحة بقوله أخيراً : (. . هذه العبارات التى لا تدل على شيء الا على أن الاستاذ ابو شادى قد درس نفسية الجماهير دراسة عرفتة بحق أن التهويل خير وسيلة للظهور خادعا أو مخدوعاً) وكان بودى أن أوقن ان لى عند الجماهير المنزلة التى يتصورها حضرة الناقد ، وأذكره بانى لست من يترضى الجماهير فلا أنا من ينظم باللغة العامية ولا أنا من يطوف على ادارات الصحف ، ولا أنا ممن يستجدى الكتاب التقاريطا ، ولا أنا الذى يتقرب الى حملة الاقلام وأرباب النفوذ ليساعدوه على الظهور واكتساب حب الجماهير . وانما انا اعمل

في عزلة بعيداً عن جو المجلات ، ولا أعرف ان كتابتي مقروءة الا في بيئة محدودة رغم حسن ظن من ينتصرون لي ، ولست من يعتبر الظهور غاية بل مجرد وسيلة للخدمة العامة ، ولا يوجد أديب معروف في مصر يستطيع أن يقول في حق اني بخسته حقه أو حاولت الظهور على حسابه ، لاسيما وليس الادب حرفة لي . واذن فهذا النقد غير صائب ومردود من جميع وجوهه .

ولا نتقل الآن الى نقده الادبي : فقد استهله بالسؤال عن معنى الشطر الثاني من هذا البيت الذي جرى على لسان أمين بك :

أنا ماشكـكت ، وهل أشك بربتي * وبمرتقي أُملي ونور ظلاي ؟
وقد تجاهل حضرة الناقد ظروف أمين بك في هذا الموقف ، وقارىء المصنوع الذي لا يستطيع مراجعة الرواية يحار حتماً أمام نقده لأنه لن يعرف الصواب من الخطأ مادام لا يعرف المناسبات . وهذه الخطأ اتبعها حضرة الناقد في جميع نقده ، مبتدئاً باصغاره حجم الاوبرا مع علمه بان صغر الحجم مقصود ، بعكس الحال لو كانت هذه درامة بحتة .

و الذي اقصده وأفهمه وفهمه كثيرون غيري من (مرتقي الأمل) موضع سموه ، ومثل هذا التعبير الموجه من حبيب نشأ نشأة حزينة الى محبوبته التي تربى معها مقبول وطبيعي ، وكذلك قوله (نور ظلامي) فمنهاه المجازي — اذا عرفت المناسبة — واضح أي (أنسى وعزائي في شقائي) ، ولكن حضرة الناقد كما ذكرت تخاشى الاشارة الى المناسبات فاستطاع بذلك أن يجهل ويصول بهذا النوع المعجيب من النقد الادبي الهين

وانتقد كذلك الشطر الثاني من هذا البيت

وأريد منذ اليوم بثضراعتي * لسناك ، فهو مثابتي وقوامي
واذا كان ينكر هذا التعبير المجازي ، فعليه أن يسقط ثلاثة أرباع الشر الفرامي ! ثم يتساءل كيف يصح معنى هذا البيت .

بددت أشجاني بحبك مثاما * ضمدت من جرح الفؤاد الدامي
ناسيا أو متناسيا ان هذا صادر من محب يقدر بر حبيبته به ، ويرى حبها اياه شفاء ودواءه من هموم الحياة وشقائها . وليس في هذا معنى شاذ . ولم تعجبه اشارتي الى ان إحساناً تغني بصوت الحب ذاته ، ثم تساءل عن

معنى الابيات الواردة في أغنية كلامية لا يمكن أن يتساءل عنها الا غير متتبع
لمجرى القصة ، أو متجاهل ذلك بقصد النقد فقط . ومن عجائبه أنه لا يفهم ان
قصدي (بموعد الخلود) — كما يدل السياق والقرائن — يوم البعث للحياة
الخالدة ، وأن أمين بك يقول أنه يشتهي سماع غناء احسان حتى يوم البعث لحياة
الخلد وان كفته هي (احسان) في ذاتها الخلد الجميل له بقرئها .
وانتقد هذا الطلب المنظوم :

أَنْظُرْ حَبِيبِي عَلَ مَنْ * بِالْبَابِ يَطْرُقُ وَالَّذِي!

وهذا النقد غير مستغرب مادام حضرة الناقد لا يفهم نزعتي الدأمة الى ارضاخ النظم لما أريد التعبير عنه في غير كلفة ، بحيث لو نثر هذا النظم لما وضع غالبا في اسلوب أكمل من الاسلوب المنظوم . وهذه من الحسنات التي أعدها في السهل المطبوع من شعر شوقي بك وأراها جديرة بأن تحمدي بدل أن تنتقد .

و انتقد استعمال كلمة عين بمعنى بصيرة في قولي :

و لسوف أقرؤها عليكم * ————— ك فانت وجداني و عيني

بِئِمَّا أُمِينَ بِكَ يَثْقُ بِأَحْسَانٍ وَيَمِيرُهَا وَحَى قَلْبَهُ وَذَهْنَهُ .

وانتقد مستهل رسالة حسن بك الى أمين بك ، وما هكذا يكون النقد
فهذه الرسالة وحدة لا تقبل التجزئة ، وعلى هذا الاعتبار ليس فيها الضعف الذى
وأهمه ولن يحتاج حينئذ الى أية فتوى منى ، ولكنه يأبى اعتبار المواقف ،
ويأبى « الاندماج » فى الرواية (كما يقول رجال المسرح) أو على الاتل يتظاهر
بذلك فيستفتينى متهمًا ، بدل أن يستفتى أشخاص الرواية و مواقفهم . وهو
إذا تأمل لن يحتاج حينئذ الى ذلك .

و قد بلغ من تدقيقه العظيم (ولا أريد أن أقول تحاملا) — وهو تعلم أن الرسالة رسالة مبالغة وتهويل واثارة جمية — أن ينتقد التعبير (ألفي مضيق) في الكلام عن بلاد جبليه موحشة . وتساءل : ما هو المجد الانيق ؟ وما هو الأباء الحقيقي !

فاما المجد الانيق ياسيدى الاستاذ الناقد فهو المجد الزاهى المعجب ، أو المجد
الحالى ، وبعبارة استنتاجية المجد الذى يستحق أن يغبط من أجله . ولكنى أعذر

حضرة الناقد فهو على ما يظهر لي يكره التعابير الجديدة ويستعمل المفردات بمعناها الاصيل التقليدي كما يرشده المعجم فقط ، رافضيا الاستعمال المجازي حتى في الشعر وسيكون لامثاله الفضل بهذه الخطة المقيمة في تعزيز الداعين الى استعمال العامية باعتبارها اكثر مرونة وأدق تعبيراً من الفصحى

وأما الالباء الحقيقي فهو الشمم الوطني كما يدل سياق الرسالة التي يشير إليها وقد أضحكني حضرة الناقد بحيرته أمام هذه الابيات الختامية للفصل الأول:

ياسيدي العلم مهـلاً * ويا أخى كن شجاعاً
وكن لاحسان عوناً * مراعيـاً ما استطاعاً
وأنت يا بنت عمى * يا من حبتني شعاعاً
يا من أراها ملاكاً * بينا يراعى يراعى
وصيتي عند موتى ... * أخى... وداعاً وداعاً !

فيشق عليه أن يفهم كيف ان احسان حيت عاشقها نوراً ، وكيف أنها تكون سائلة ومسؤولة ، راعية ومرعية ، مع أن الموقف ناطق بذلك وهو يشير الى وصيته ويذكر أخاه ... ولكن ما الفائدة من مناقشة حضرته اذ كان هو يغفل مواقف الرواية إغفالاً ؟! وصفوة القول
أتى أكرر لحضرة الناقد والمجلة الشكر على نقد (احسان) بهذا الاسلوب الذي يعد خطوة الى الأمام بالنسبة لما يظفر به المؤلف عادة من شتائم في بعض الصحف كأنها اقترفت جريمة كبرى ! ولكني أبدي أسفي على هذه السقطات منه :

(١) أن تدفعه شهوة النقد في مثل نوبة الهستيريا الى تجريد الكتاب من كل حسنة ، والى غمز (رابطة الادب الجديد) التي تضم بين أعضائها الادباء من رجال العلم والادب والصحافة ، وتعمل بالتعاون على نشر الثقافة القومية مقدمة للمنتسبين اليها ما يحتاجون اليه من وسائل الارشاد الادبي ، مهتمة بنشر الابحاث الجديدة ، واذا كانت (الرابطة) قد عنيت بكتابين لي ، فليس بشيء مذكور بجانب ما تصدره من مطبوعات مفيدة متنوعة

(٢) أن يتناسى لهذا السبب المتقدم ان الشاعر الكبير الاستاذ احمد محرم

أكثر العاطفين من طبقته على الشعراء المجددين الناشئين ، فكان الاولى به الترحيب به معنا بدل دفعه !

(٣) أن يغالى فى النقد اللفظي مغالاة البدوى القح الذى لم يتذوق تعابير الالم الاخرى بل يعدها شبه خارجة عن البيان الاكدمى ، وأن لا ينزل المجاز منزلته ، مؤثراً أبسط التعابير التقريبية الاولى ، فلا يفهم مثلاً (الاكاذيب الضالة بمعنى الطائشة الشاردة ، ولكنه يفهم (الاكاذيب المضللة) الخ . مما ترتب عليه نقد طويل عريض على غير جدوى أساسه اصغار من ينتقده .

(٤) أن يتجاهل أنى أكثر الشعراء ترحيباً بنقدى ونشراً له ، وفى طلبهم تعاوناً مع غيرى من الادباء ، فيعز عليه بجانب ذلك أن يظهر اى تقدير لى سواء صواباً أو مبالغاً فيه ، وكان الاولى به التنويه بذلك حينما أعلن باعلى صوته زلاتى الموهومة ، وحينئذ كان يتم وعظه لشعراء العصر ، وكنت أو من باستقلاله فى النقد واخلاصه .

(٥) أن يرضيه الجمود الشائع ولا يرى فى هذا التأليف أمل باعث على طرق باب جديد يخدم الشعر وفنون المسرح ونهضتنا التهذيبية !

(٦) أن لا تكون لديه الشجاعة الأدبية الكافية لإعلان اسمه بينما خدمة النقد الأدى فى مصر تستدعى ذلك حتماً كما فعل الاستاذ مظهر فى نقد (عصر المأمون) .

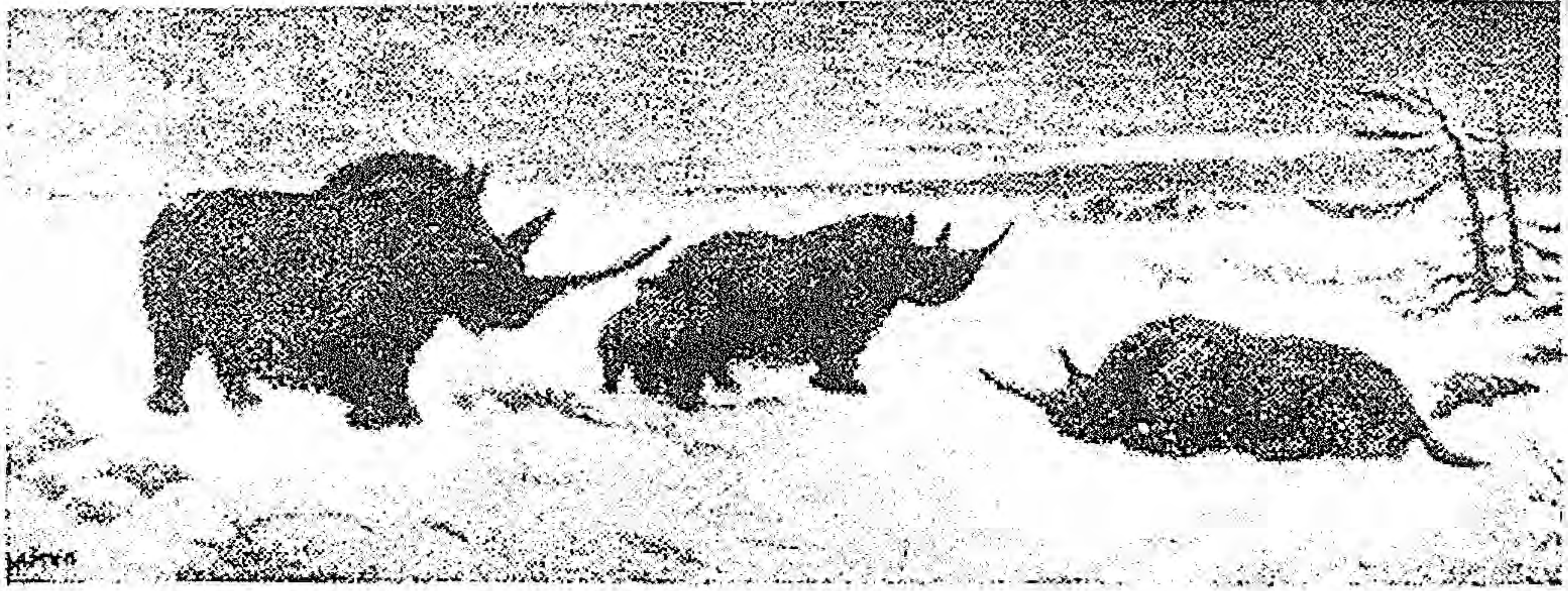
الاسكندرية فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٧٢ احمد زكى أبوشادى

« المصور » لناقدنا كلام فى هذه الرسالة موعداً به العدد القادم



فصول مصورة في التاريخ الطبيعي

الكركون المنقرض
(رينوسيروز انتكويثاتس)
Rhinoceros Antiquitatus.



إن أشهر أنواع الكركدن المنقرضة هو النوع المسمى (رينوسيروز انتكويثاتس) أو الكركدن (الصوفي) الذي كان يعيش في أوروبا وسيبيريا ، وسمى بالصوفي أو الوبري لأن جسمه كان مغطى بصوف يقيه البرد في الاصقاع الشمالية . وهذا النوع يقارب نوع المعروف بالكركدن المستدير الغم أو الكركدن الأبيض الذي كان يعيش في أريكية وانقرض منذ زمان قصير .

وهذا النوع كان يتقي الجليد ببرد شتوي أشبه بفرو سميك من الشعر يغطي طبقة رى من الصوف أو الوبر الرفيع . ولقد عثر على عينة من هذا الصوف الرفيع في جيدة على جانب من وجه حيوان منقرض من هذه الحيوانات عثر عليه في سهول ريا الجليدية وحفظت بقاياه في متحف التاريخ الطبيعي ببتروغراد .
وإذا نظرت في هذه اللوحة رأيت في آخرها جمهوراً من حيوان المموث وسرب السيفاس (Saigas) وهو نوع من الوعل المنقرض .

لقد بقي الكوكدن ملازماً البقاء في مجاهل الجليد الشمالية . ولم يبلغ في الهجرة نوب مبلغ المموث . وكان من قطان السهول المتسمة ، ويفتدى بالحشائش الصغيرة

المموت والغزال الأحمر



في أوائل أبريل - « الغزال الأحمر - الزرافة - والمموت على شواطئ نهر السوم في فرنسا »

يرجع الباحثون كثيراً إلى قتل المموت Mammoth والغزال الأحمر أي الزرافة والكركدن كانت مهاجرة شمالاً ثم تقلب جنوباً تبعاً لتغير الفصول ، وهذه
ملاحظة مثيرة للاهتمام في الشمال في أوائل أبريل . وما كانت الصورة التي خشيها الإنسان لأول مرة في العصر الحجري على جدران الكهوف وعلى الأخص الصور
التي تراها مقلدة على جدران كهف « فوندينيوم » قد نقشت بكثير من الدقة ، ولما كانت بقايا المموت قد حفظت في الجليد ووصلت إلينا بفضلها في حالة
جيدة ، فإن رجح أن هذه الصورة التي صورها الفنان « نايت » - Knight - قد تعطينا صورة قريبة جداً من الحقيقية للمموت وهو من الحيوانات

Proboscidea أي الحيوانات ذات الخرطوم الطويلة

فإن المموت الصوري كان يشابه كثيراً الفيل الهندى . غير أنه كان أكبر حجماً ، وشعره أشد كثافة ، كما كانت أذنيه أطول وأشد انحناء .

والجمل غائر على جثث كاهن من هذا الحيوان مصورة في توبج سيبيريا ، حيث يظهر أن هذا الحيوان قد عاش هناك لمدة طويلة بعد انقراضه من أوروبا .

الاستودون وبعض المصيريات



في منتصف الصيف - الاستودون Mastodons والبزون وحصل على صنف من البزوني أمريكا على الحدود ولاية كنساس

وهذه اللوحة تمثل منظرًا خلال فصل الصيف في إقليم من إقليم أمريكا الشمالية عند آخر الحدود التي يمكن أن تصل إليها هذه الحيوانات في هجرها جنوباً.

ويزي الاستودون على شكل الشجر لوحة موضح الأرض مستطاباً ، وأرجله قصيرة جسد قصير وبغضائمه . وقد عث في أمريكا حتى غصير ظهور

الإنسان في أوروبا . ولكن لم يعث في أوروبا شيء من نوع الاستودون حتى ذلك العهد ، وفي وسط اللوحة يرى البزون الملكي - *Bison regius* - وهو

النوع الذي تنسل عنه البزوني الحالي . وفي يمين اللوحة جمهور من حصان أمريكا الأصلي *Equus scotti* وقد بدأ قبل ظهور الإنسان في أمريكا الشمالية .

قهرست

- ٤٠١ - عصر الاستكشاف البحري
 ٤٠٨ - كارثة لشبونة
 ٤١٤ - المذهب (قطعة شعرية)
 ٤١٥ - وحدة الحالات التعيسة (بحث عامي)
 ٤٢٣ - ماذا على الرمان (قصيدة)
 ٤٢٤ - فصول مصورة في التاريخ الطبيعي
 ٤٢٥ - فساد المجتمع الانساني
 ٤٢٨ - راسبوتين
 ٤٣٢ - الاشباح الثلاثة (عن ديوان الجداول)
 ٤٣٦ - هي (قطعة شعرية عن طاغور)
 ٤٣٧ - علاقة الانسان بالكون (فصل فلسفي عن طاغور)
 ٤٥٢ - قبيل السحر (حادثة واقعية)
 ٤٦٤ - نظام الافلاك قديما وفي العصور الوسطى
 ٤٧٠ - سياسة التعليم
 ٤٧٦ - نثر وشعر
 ٤٨٠ - الانتحار كمؤثر اجتماعي (عن شرتون هيل)
 ٤٨٦ - العلم والآراء الحديثة
 ٤٩٢ - بشار بن برد
 ٥٠٠ - مآسى التاريخ - كيف قتل السلطان عثمان
 ٥٠٨ - مد الاحاد (عن ارثر هداسون)
 ٥١١ - بنديكت سبينوزا
 ٥١٧ - فلسفة التاريخ
 ٥٢١ - النقد والتأليف - الاسلام والنصرانية لمحمد عبده - احسان ردى على نقد للاستاذ ابوشا دى
- أديب
 عبد اللطيف ثابت
 حسين تقى أصفهاني
 ماري عجمي

 صهر عنايت
 حسنين محمود
 إيليا ابوماضي
 حسن كامل الصيرفي

 بيداغوج
 توفيق حلبي

 كامل البهنساوي
 اسماعيل
 محمد خليل

 كامل صموئيل مسيحه
 فيلوزوف